83

إحسان عبد القدوس

الحبّ فى رحاب الله



تخرجت فعلا من مدرسة المعلمات ولكنها لم تجد عملا لأنها لم تصل بعد إلى سن التعيين كمدرسة فى إحدى مدارس الأطفال .. وربما لأنها هى نفسها رغم أنها اختارت أن تكون مدرسة لم تكن فى منتهى الحماس لتزاول التدريس .. واستسلمت لأن تعيش بلا عمل .. وإن كانت أحيانا تتحمل مسئولية التدريس لإخوتها الصغار .. أو تلبى رجاء العائلات القريبة للتدريس لأطفالها .. دون أن تتعمد احتراف التدريس .. أى دون أن تقبل أى أجر على التدريس لأطفال الجيران .. إنها فقط تتطوع للتدريس دون أن تتقيد بهذا التطوع .. وتحتفظ لنفسها بحريتها الكاملة .. أى قد تلقى الدرس ثم تعتذر عن الدرس التالى .. ثم قد تعود إلى الدرس الذى يليه .. حتى قيل عنها إنها فتاة كسول .. ولكن عدلية نفسها لم تكن تتهم نفسها بالكسل رغم ما كانت تمر بها من فترات الملل .. إنها ليست كسولا ولكنها مستسلمة لكل ما تفرضه شخصيتها على حالها ..

ولعل أبرز ما عرف عن عدلية هو تدينها العميق وحرصها على أداء جميع فروض الإسلام .. وكانت تدمن أداء الصلاة .. تصلى الفروض وتصلى ما تعرفه من تعاليم السنة .. وأحيانا تستمر فى الصلاة إلى أبعد مما تحدده الفروض وتوحى به السنة .. إنها تحس براحة كاملة وهى واقفة بين يدى الله .. تركع وتسجد له .. وربما كانت مع إيمانها العميق الصادق الذى يدفعها إلى الصلاة تحس بأن الصلاة هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تلجأ إليها لقطع الوقت والهروب من الزهق الذى يحيط بها .. وليس حراما أن يلجأ المخلوق إلى الله بالإسراف فى أداء الصلوات حتى يستعين به سبحانه وتعالى ليحميه من الأخطاء التى يمكن أن يدفعه إليها الفراغ والزهق والملل ..

وما عرف عن تدين عدلية وحرصها على أداء الفروض جعلها أكثر احتراما فى المجتمع وأشد جذبا لراغبى الزواج ..

وهى تعلم أنها يوما ما يجب أن تتزوج .. ولكنها ليست متعجلة فى الوصول إلى هذا اليوم ولا تبحث حتى بخيالها عن الرجل الذى يمكن أن تتزوجه .. ولكنها فقط تضع بينها وبين نفسها شرطا للرجل الذى يمكن أن يجمعها به الزواج .. وهو أن تعرفه معرفة كاملة قبل أن يكتب العقد .. تعرف تفاصيل شخصيته وتفاصيل حاله .. حتى لا تلقى بنفسها فى المجهول .. وهذا الرجل الذى تقدم إليها أخيرا لا تعرفه ولا تعرف عنه إلا أنه ناجح فى عمله .. إنه المجهول .. ولكن هذا المجهول يقدم إليها حياة تتطلع إليها وتتمناها .. حياة توفر لها ما ينقذها من الملل والزهق والفراغ الذى تعانيه .. الحياة بعيدا عن مصر .. وبعيدا عن الروتين البارد الذى تعيشه العائلة .. ورغم لحظات التردد التى كانت تعانيها بين القبول أو الرفض .. فقد انتصر عليها هذا المجهول .. وأعلنت فى اليوم التالى قبول الزواج من عبد الحميد عبد الحى .. وهى تحس بموافقتها كأنها مقبلة على مغامرة بإلقاء نفسها فى المجهول .. وقد فرحت العائلة بموافقتها فرحة كبيرة رغم أنها أيضا لا تعرف عن عبد الحميد شيئا إلا ما سمعته من العائلة التى قدمته .. وهى عائلة محترمة صديقة لا يمكن أن تتقدم إلا بعريس محترم يستحق الزواج بابنتهم ..

وتم الزواج بسرعة عجيبة وعبد الحميد يلبى كل مطالب العائلة دون نقاش مهما غالت فى مطالبها .. وإن كان يبدو أحيانا كأنه بخيل .. فقد رفض أن يقيم حفل زفاف عاما فى أحد الفنادق وأصر على أن يكون حفلا عائليا داخل البيت .. بحجة ألا وقت لديه لتوجيه الدعوات .. وكان

يحمل حلية الشبكة فى جيبه وقال إنه سبق أن اشتراها من البلد العربى الذى يقيم فيه .. لأنه لم يأت إلى القاهرة إلا بنية الزواج .. ورغم أنها تبدو حلية ثمينة : سوار من الذهب الأبيض أو من البلاتين كما قال عبد الحميد .. تحمل فصوصا صغيرة من الماس لا يزيد أكبرها على ثلاثة قراريط .. إلا أنها لم تعجب عدلية وقد وعدها عبد الحميد أن يستبدل بها حلية أخرى بعد أن يصلا إلى الخليج .. فالسوق هناك أوسع وتعرض فيها حلى أرق وأفخم مما يعرض فى مصر .. كثير من المطالب كان يؤجلها إلى أن يلبيها هناك .. بل إن العائلة طلبت منه فى رفق ولباقة أن يشترى أو يؤجر شقة فى القاهرة قبل أن يسافر .. لتكون حصن الأمان لمستقبل الزوجية .. ولم يرفض عبد الحميد ولكنه ترك لهم البحث عن هذه الشقة فإذا وجدوها أرسلوا إليه ليرسل إليهم قيمة التكاليف .. وعندما سألوه عن مدى ما يستطيع أن يدفعه .. قال فى غموض :

ــ ربنا يقدرنى ..

ورفض أن يحدد قيمة الثمن الذى يمكن أن يتحمله ..

وكل هذه المطالب كانت تناقش فى جلسات عائلية هادئة يسودها الحرص على تحقيق مشروع الزواج ولم يكن عبد الحميد يتعمد إطالة هذه الجلسات .. ينصرف فورا بعد أن ينتهى من دعوة إلى الغداء .. ولا يتأخر فى جلسة معهم عن الساعة التاسعة مساء .. ويصمم على الانصراف وكأنه على موعد .. وكانت الجلسات كلها كأنها جلسات عمل .. لا تتخللها أى محاولات للتعبير عن أى تمهيد للعلاقة الزوجية .. فلم يحاول مرّة ولو الإمساك بيد عدلية والضغط عليها كعلامة من علامات لقاء عاطفى ..

وفى اليوم العاشر بعد أن بدأ اللقاء كان قد تم كل شىء وصحب عدلية وهى زوجته إلى موطنه على شاطىء الخليج العربى ..

مشروع لم يستغرق إعداده سوى عشرة أيام لتبدأ عدلية بعدها حياتها الزوجية ..

* * *

وقد ذهلت عدلية والسيارة تحملها من المطار إلى بيت الزوجية وتتلفت حولها تتطلع إلى ما تمر به .. إنها مدينة فخمة رائعة .. لا يبدو فيها أى شىء يستكمل أى مظهر عربى .. إنها تحس كأنها دخلت مدينة أقيمت حديثا فى إحدى الولايات الأمريكية كالمدن التى تشاهد صورها فى الأفلام السينمائية أو على شاشة التليفزيون .. الشوارع واسعة أضعاف اتساع أى شارع فى مصر .. والأشجار الزاهية قائمة على الجانبين والأرصفة مغطاة بالحشائش .. رغم أنها مدينة قائمة فى صحراء ولم تكن تتصور أنها ستجد فيها أى ورقة خضراء .. وانبهرت أكثر وهى تمر فى شارع الكورنيش الممتد على ساحل البحر .. كأنه كله جنة لا نهاية لها .. إن شارع كورنيش الإسكندرية يبدو أمامه كأنه حارة مهملة خانقة .. رغم أنه يسمى أيضا شارع « الكورنيش » .. ثم إن المدينة كلها تبرق بالنظافة .. وأسفلت الشوارع يبرق ويستوى كأنه طرز لثوب جديد آخر موديل يلف جسد حسناء .. ولم تر فى أى شارع أى زحام كالزحام الذى يخنق شوارع مصر .. والناس تمشى كأنهم فراشات تطير فى الهواء ولا يصطدم أحدهم بالآخر .. وعمارات شاهقة كأنها ناطحات سحاب .. وفيلات رائعة داخل حدائق تبدو أشجارها وزهورها كأنها أنغام تعزف أروع ألحان الجمال .. وقد لمحت مسجدا أو مسجدين صغيرين متواضعين أقيما

فى انزواء بين العمارات الضخمة .. كأن كل مسجد يختبئ فى عمارة دون أن يجرؤ على تحديها بالتفوق عليها فى الضخامة والروعة .. ولكن هذه المساجد هى التى ذكرتها بأنها فى مدينة عربية إسلامية ..

وكانت عدلية — وهى بجانب عبد الحميد — لا تكف عن التعبير عن انبهارها .. وتلقى عليه بسؤال عن كل شبر من الأرض التى تمر عليها .. وهو يجيبها فى برود وبلا مبالاة .. كأنه لا يحس معها بشىء مما يمران به يمكن أن يثير أى انبهار .. ولكنها بينها وبين نفسها اتخذت أول قرار وهو أن تقضى أيامها الأولى فى هذه المدينة وهى تطوف على كل شبر منها لتتفرج عليها ..

ولكنها فوجئت منذ اليوم الأول بشخصية عبد الحميد التى لم تكن تعرفها .. فوجئت بالمجهول .. إنه لا يطيق الكلام .. ولا يتصور أن هناك موضوعا يمكن أن يثير أى كلام بينهما .. ولو لمجرد التسلية .. ولا يتحرك لسانه إلا إذا طرأ عليه موضوع إدارة البيت وما يتطلبه من نفقات ..

وكان يخرج من البيت فى الساعة السابعة صباحا إلى عمله كموظف حكومى .. وكانت تعلم أن الحكومة تغلق أبوابها فى الساعة الواحدة والنصف .. ولكنه كان لا يعود إلا فى السادسة أو السابعة مساء .. ولم تكن تدرى أين يذهب ولكنها كانت تشم رائحة الخمر ينفثها فى وجهها وهى تستقبله .. لم يكن يبدو مخمورا فى تحركاته وتصرفاته .. إنه دائما بارد جامد رغم رائحة الخمر التى تهب عليها .. وكان بعد أن يعود لا يقول أكثر من كلمتين .. ثم يمد يده إلى دولاب مخصص لاستعماله الشخصى ويشد زجاجة من الخمر ويجلس صامتا ويعب كأسين أو ثلاثا .. وهو صامت دون أن يقاطعها أو يصدها عن أى كلمة تقولها .. وكأنه يتركها

تحادث نفسها ..

إن آخر ما كان يخطر على بالها قبل أن تتزوجه هو أنه سكير .. لعله كان يصر على عدم إطالة السهرات فى جلساته مع أفراد العائلة حتى ينفرد بنفسه ويشرب الخمر .. ولو كانت قد عرفت أنه سكير لرفضت قطعا الزواج به .. إنه يتحدى الدين الإسلامى .. وهى مسلمة منتهى الإسلام .. ولكنها الآن لا تستطيع أن ترفضه .. فإن الخمر لا تطلق فيه شخصية تعتدى عليها .. ربما لو اعتدى أو تجرأ عليها يوما لهربت منه وانفصلت عنه .. ولكنه إلى الآن لم يخرج عن هذا الصمت الذى يكاد يخنقها .. وكانت تتركه يشرب الخمر وحده وتدخل حجرتها وتصلى لله ليرحمه من الخمر ويرحمها منه .. ولا تعود إليه فى جلسته إلا بعد أن تتأكد أنه أبعد الكأس وأعاد زجاجة الخمر إلى مكانها المختبئ .. إن إسلامها يحرم عليها أن تجلس فى أى جلسة خمر .. وتقدم إليه بعد ذلك وجبة العشاء .. إنه يأكل صامتا أيضا دون أن يبدى رأيا فيما يأكله ويتذوقه .. لا يعبر عن إعجابه بشىء ولا عن رفضه لشىء .. ويأكل كل شىء .. حتى بعد أن ينتهيا من تناول العشاء .. ويجمعهما الفراش يبدو فى بروده كأنه مقبل على تناول وجبة أخرى من الطعام .. ويتناولها فى صمت أيضا دون أن يحاول إحاطتها بأى إحساس عاطفى وهو يأكلها .. إنه فقط يبتلع ريقه ليساعده على الهضم ..

وكان قد مضى يومان منذ وصولهما عندما قالت وهى تتعمد الرقة :

— أريدك أن تصحبنى لأطوف بالبلدة .. أريد أن اتفرج عليها كلها ..

وقال فى لهجته الباردة :

— ليس فيها ما يستحق الفرجة .. لقد مضى على فيها عشر سنوات وأعرفها شبرا شبرا ..

وقالت مقاطعة فى رقة :

— ولكنى جديدة عليها وأريد أن أتفرج عليها ..

وقال فى هدوء :

— تفرجى ..

وقالت فى دهشة :

— هل أخرج للفرجة عليها وحدى ..

وقال بنفس الهدوء :

— إن جارتنا سلمى يمكن أن تطوف بك .. فاتفقى معها ..

وكتمت سخطها رغم أن نيرانه تشتعل فى صدرها .. وكانت قد تعرفت بجارتهم سلمى وهى لبنانية وزوجها موظف آخر من موظفى الحكومة بعد أن جاءا لزيارتهما يهنئانهما بالزواج .. ولم تكن قد استراحت لصداقة سلمى منذ عرفتها .. إن فى شخصيتها تفاوتا بعيدا عن شخصيتها .. الشخصية المصرية والشخصية اللبنانية .. ورغم ذلك تعمدت التقرب إليها حتى تصحبها فى الطواف بالمدينة .. ولكنها ضاقت بها سريعا بعد جولتين .. وأصبحت تخرج من البيت لتجوب شوارع المدينة وحدها .. وتزداد مع كل جولة انبهارا ودهشة .. لم تكن تعرف أن العالم أصبح ينتج كل هذه المنتجات .. كل شىء تجده .. وأشياء كانت أبعد من خيالها وخصوصا فيما يمكن أن تريده المرأة .. إن هذه المدينة تستورد كل ما ينتجه العالم .. بل إنها لو سألت عن قطعة حجر مستوردة من القمر لوجدتها .. وكل شىء مباح فالنساء فى الشوارع سافرات ..

والأذرع والسيقان مكشوفة .. بل إنها رأت فى حمامات السباحة المنتشرة فى كل فندق وكل ناد نساء يرتدين البكينى .. وصدورهن تكاد تكون عارية .. كما أن الخمور تقدم وتباع علنا .. وقد سخرت عندما رأت داخل كل فندق .. وكلها فنادق من أفخم ما تقدمه شركات الفنادق العالمية كهيلتون وشيراتون .. و .. و .. سخرت عندما رأت فى كل فندق مكانا ضيقا أقيم كأنه خيمة عربية مفروشة بالوسائد والسجاجيد على الطراز العربى وتقدم فيها القهوة والشيشة .. كأنها تريد أن تذكر زبائنها بأنهم فى بلد عربى ..

وأصبحت تخرج كل يوم ولا تراعى وقتا محددا لتعود إلى البيت .. فزوجها عبد الحميد لا يعود إلا فى أوائل المساء .. بل إن طوافها شغلها حتى عن عادة التمادى فى الوقوف بين يدى الله والتمادى فى الصلاة .. ورغم انبهارها العنيف بكل ما تراه فى الدكاكين فلم تكن تشترى شيئا له قيمة .. فزوجها لم يشركها معه فى التصرف فى أمواله .. بل إنها إلى الآن لا تعرف كم يصل دخله .. وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تطالبه أو تفرض عليه مصروفا خارج ميزانية البيت التى حددها لها .. فهذه هى طبيعتها .. إنها لا تشحذ شيئا من زوجها .. ولكنها تجرأت يوما واستبدلت هذا السوار الذى قدمه لها كشبكة وتركته يفهم أنه لا يعجبها .. استبدلت به من الدكان الذى اشتراه منه خاتما ماسيا لا يزيد ثمنا بل يقل عنه قليلا .. وقد أطلعت زوجها على ما استبدلته فلم يعترض بل لم يبد رأيه .. المهم أن هذا الاستبدال لم يكلفه مزيدا من أمواله .. بل تركته يذهب إلى الدكان ليسترد فارق الثمن بين السوار والخاتم .. كأنها ترد إليه بعض ما دفعه .. ولو أن صاحب الدكان رفض أن يرد هذا الفارق نقدا

وأعطاه به سلسلة مفاتيح ذهبية أخذها لنفسه ..

ولكن بعد أسابيع بدأت عدلية تضيق بهذا الطواف فى شوارع البلد .. وضعف انبهارها بما تراه .. بدأت تحس أنها لا تعيش فى بلد .. بل كأنها تعيش فى دكان كل ما فيه مستورد .. وهى نفسها فى هذا الدكان ليست أكثر من قطعة مستوردة .. غريبة عن كل ما حولها .. وحيدة .. إن أغلبية المقيمين فى هذا البلد من الأجانب المستوردين .. وكل مجموعة منهم أقامت لنفسها مجتمعا خاصا متباعدا عن المجتمع الآخر .. فأهل البلد الأصليون لهم مجتمع خاص بهم .. وبجانبهم مجتمع لبنانى لا علاقة لهم به .. ومجتمع سورى .. ومجتمع فلسطينى .. ومجتمع كورى .. ومجتمع سودانى .. ومجتمع أمريكى .. و .. و .. والمصريون لهم مجتمعهم الخاص بهم .. وهو أضعف المجتمعات رغم كثرة عدد أفراده .. ولا يحقق أى وحدة مصرية أو شخصية مصرية .. إن كل فرد فى هذا المجتمع يتبرأ من الآخر ولا يراه إلا كأنه عدو يعتدى على رزقه .. وهو ما أصبحت تعرف به كل المجتمعات المصرية التى تقوم فى الغربة خارج مصر .. ربما لأن المصريين لم يتعودوا بعد على الغربة وعلى حياة الهجرة ..

وقد حاولت بجرأة أن تقدم نفسها إلى كل هذه المجتمعات وتعيش فيها .. بل إن زوجها قبل عدة مرات دعوات جارتهم سلمى لقضاء ليال فى النادى اللبنانى .. ولكنها لم تستطع أن ترتاح وتتجاوب مع أصدقاء فى أى من هذه المجتمعات بما فيها المجتمع المصرى .. ووجدت نفسها تنعزل عن كل هذه المدينة داخل بيتها .. بعيدة عن الناس وبعيدة نفسيا عن زوجها .. ولجأت فى مقاومة وحدتها إلى الله وقطع الوقت والتغلب على الملل بالوقوف بين يديه .. لتصلى ..

وكان كل ما تنتظره أن يبدأ زوجها فى إجازته السنوية وتسافر معه إلى أوروبا .. إنها مشتاقة إلى الفرجة على مدن أوروبا كما كانت مشتاقة إلى الفرجة على هذه المدينة التى أصبحت تقيم فيها .. وقد سألته وهى حريصة على الرقة :

— متى تقوم بالإجازة ؟

وبهتت وهو يرد عليها قائلا :

— إنى أرفض الإجازات .. وأستعيض عنها بالبدل النقدى الذى أحصل عليه نظير التنازل عنها ..

وقالت محتجة :

— ولكنى فى انتظار الإجازة حتى نسافر إلى أوروبا .. أريد أن أتفرج على أوروبا ..

وقال فى برود :

— إن كل ما يمكن أن تريه فى أوروبا تجدينه هنا ..

وقالت كأنها تتحايل عليه :

— على الأقل نهرب من لهيب الصيف هنا ..

وقال بنفس البرود :

— إن كل غرفة فى بيتنا بها مكيف للهواء .. وكل بناء فى البلد وكل سيارة تجرى فى شوارعها تحمل مكيفا للهواء .. إن مكيف الهواء هنا من لوازم الحياة كحنفيات المياه .. إننا لسنا فى مصر ليخنقنا البرد أو يمزقنا الحر .. إن الجو الذى تريدين أن تعيشى فيه لا يكلفك لتجديه سوى الضغط على زرار مكيف الهواء ..

وانتهى النقاش بأن استسلمت .. ولعلها لم تستسلم ولكنها كانت تحس

بأنها تخوض تجربة مع المجهول .. ولم تنته هذه التجربة بعد .. بل إن هذه التجربة لم تصل بها إلى الاقتناع بأن تنجب أى مولود من هذا الزوج الذى تعيش معه وهى لا تعرفه .. تعيش مع المجهول .. وكانت حريصة على تناول حبوب منع الحمل بانتظام دون أن يدرى زوجها .. وهو أحيانا يعبر فى كلمة عابرة عن أمنيته فى أن يرزقهما الله بمولود .. ولكنه لم يكن متعجلا .. ربما كان متفرغا ليجمع أموالا أكثر حتى يبدأ التفكير فى إنجاب وارث .. وهى نفسها كانت تمر بها حالات تشتاق فيها إلى أن تنجب .. أن تكون أما .. إن الأولاد يمكن أن يرحموها من هذا الزهق والملل والفراغ الذى تعانيه .. ولكنها لم تقتنع بعد بأن تنجب وتعيش بأولادها مع هذا المجهول .. وتكتفى بأن تعيش ساعات أطول بين يدى الله .. إلى أن تذكرت أنها خريجة مدرسة المعلمات .. لماذا لا تحاول أن تعمل مدرسة فى إحدى مدارس الأطفال المنتشرة فى هذه المدينة .. إنها تحب كل الأطفال حتى ولو لم يكونوا أبناءها .. وبدأت تحاول العمل كمدرسة .. ولم يعترض زوجها .. إنها ستقبض راتبا محترما يزيد من دخل العائلة .. بل إنه هو نفسه ساهم فى محاولة تعيينها كمدرسة .. إلى أن عينت ..

وخفت بعض ساعات الملل والزهق والفراغ التى تعانيها .. إنها تخرج من البيت مع زوجها فى الساعة السابعة صباحا لتذهب إلى المدرسة .. ولكن المدرسة تنتهى فى الساعة الثانية عشرة ظهرا من كل يوم .. فتعود إلى البيت وحدها .. وتحاول وهى وحدها أن تشغل نفسها بإعداد ومراجعة أعمال التلاميذ .. ثم لا يلبث الملل والزهق أن يزحفا عليها فتجرى للوقوف بين يدى الله .. تصلى .. إنها لا تطيق هذا الهدوء الصامت الذى يسيطر على بيتها .. بل يسيطر على البلدة كلها .. رغم أنه هدوء آمن مطمئن .. فتهرب من الدنيا كلها إلى السماء .. إلى الله ..

* * *

وكان بجانب المدرسة مسجد من هذه المساجد الضيقة المتواضعة التى تختفى وراء العمارات كأنها تستحى من إعلان الإسلام .. ومرت كثيرا من أمام هذا الجامع إلى أن وجدت نفسها مرة تدخل إليه .. كأن دافعا مفاجئا غريبا دفعها إليه لتصلى فيه .. والجمع بين النساء والرجال مباح فى كل المساجد هناك ..

ولم تكن تعلم أن الله أعد لها داخل هذا المسجد الطريق إلى حياة أخرى ..

* * *

ودخلت الجامع وهى مترددة ترتعش سيقانها فى خطواتها .. إنها لم تتعود دخول المساجد فى مصر إلا فى صحبة عائلية خلال مناسبات زيارة الحسين أو السيدة زينب .. وهى المرة الأولى التى تدخل جامعا وحدها .. ولا تدرى لماذا دخلت .. لعلها كعادتها تلقى بنفسها فى المجهول .. ولكنه المجهول الذى تستغيث به .. إنها تلقى بنفسها بين يدى الله ..

والجامع خال من المصلين بعد أن كانت قد انتهت صلاة الظهر .. ولكنها لمحت بجانب المنبر شيخا جليلا جالسا يرتل القرآن الكريم بصوت خفيض هادئ .. لعله إمام الجامع .. إنها أول مرة تراه فيها وعرفت اسمه فيما بعد .. إنه الشيخ جاسم .. لا شك أن اسمه هو قاسم .. ولكنهم هنا ينطقون ويكتبون حرف القاف بحرف الجيم .. والشيخ جاسم يبتسم لها مرحبا بمجرد أن رآها .. ابتسامة هادئة مريحة لا تعكس على عينه أى معنى مرفوض .. وقد ردت ابتسامته بابتسامة خجلة ضائعة ..

وكانت قبل أن تدخل قد خلعت حذاءها ولفت رأسها بالوشاح الذى

كانت تلف به عنقها .. وهى مطمئنة أنها ليست فى حاجة إلى وضوء آخر .. فوقفت فورا أمام القبلة وأدت صلاة ركعتين تحية للجامع .. ثم جلست فترة على أرض الجامع وهى تحس براحة تزحف عليها لم تحس بها من قبل .. كل أعصابها وأحاسيسها النفسية ترتاح راحة لم تشعر بها من قبل .. ولكنها فى هذه الفترة انطلقت عيناها فيما حولها فرأت رجلا آخر جالسا فى ركن من الجامع .. إنها تعرفه .. إنه مصرى اسمه المهندس مرتضى رفعت .. وهى تعرفه وتسمع عنه من بعيد ومما يردده المجتمع المصرى فى البلد من كلام .. ولكن لم يجمعهما من قبل أى لقـاء .. وابتعدت بعينيها عنه سريعا وهى تستغفر الله لأنها تطلعت إلى رجـل غريب .. وانتفضت واقفة وبدأت تؤدى ركعات صلاة الظهر .. وبعد أن أدتها جمعت ساقيها تحتها مستسلمة لمتعة الراحة التى تشملها داخل الجامع .. ولكنها وجدت نفسها تتلفت بعينيها إلى حيث يجلس مرتضى .. وفوجئت بعينيها تلتقيان بعينيه .. فهربت بعينيها فورا من عينيه ونظرت نفسها واقفة خارجة من الجامع .. وإن كانت قد حيت الشيخ جاسم فى خروجها ...

ــ السلام عليكم ..

ورد عليها وابتسامته تتسع نابضة بفرحته :

ــ بارك الله فيك يا ابنتى ..

وعادت إلى بيتها وقضت كل ساعات وحدتها وكأنها لا تزال فى الجامع وتطرأ على خيالها صورة الشيخ جاسم وهو جالس أمامها .. ثم تبرز فى خيالها صورة مرتضى وهو جالس على ناحية منها وتقاوم حتى خيالها فى تصوره..

وليس من عادتها أن تستسلم لتصور أى رجل غريب .. حتى وهى تحاول أن تركز نفسها بين كتب وكراسات التلاميذ لا تستطيع أن تقاوم خيالها وهو يبتعد بها إلى الجامع ..

لم ترو لزوجها عندما عاد حكاية إقدامها على أداء الصلاة فى الجامع .. فهو لا يعود إلا ورائحة الخمر تفوح منه وحديث الجامع لا يعرض على مخمور ..

وفى اليوم التالى ودون أن تفكر أو تتعمد وجدت نفسها تخرج من المدرسة بعد انتهاء الدراسة وتتجه إلى الجامع .. كأنها كانت طول حياتها تتردد عليه .. وألقت على الشيخ جاسم التحية من بعيد .. ووقفت تؤدى صلاة الظهر .. ثم طوت ساقيها تحتها وجلست تتمتع بالراحة النفسية التى يوفرها لها الله وهى فى بيت من بيوت الإيمان به .. وإذا بالشيخ جاسم يقوم ويقترب منها ويجلس بجانبها .. ويبدأ فى التحدث إليها .. ولم يسألها من تكون .. ولا عن حالها .. ولكنه لا يتحدث إلا عن عبادة الله .. وما يعنيه الإسلام .. وهى تتفتح أكثر وأكثر لحديثه .. إنها تفاجأ بكثير من التعاليم والتفسيرات التى لم تكن تعرفها .. بل بكثير مما يتعارض مع ما تعرفه وما تفهمه .. وقد بدأت تناقشه .. ولكنه نقاش هادئ يحيط الجانبين بإيمان يجمعهما معا ..

إلى أن فوجئت بصوت يدخل الجامع ويلقى من بعيد بتحية السلام .. والتفتت .. إنه مرتضى .. وسحبت التفاتتها بسرعة وهى تستغفر الله .. وقد انزوى مرتضى بعيدا عنها وعن الشيخ جاسم يؤدى الصلاة .. وهى هائمة فى صورته وتدهمها تساؤلات عنه .. حتى دهمها تساؤل تحركه

طبيعتها كامرأة .. هل رآها بالأمس فجاء اليوم خصيصا ليستعيد رؤيتها .. ولكنها علمت فيما بعد أن من عادته أن ينتهى من عمله ويأتى إلى الجامع ليؤدى صلاة الظهر .. نفس التعود الذى بدأت تكتسبه ..

وظلت بجانب الشيخ جاسم تستمع إليه وترد عليه إلى أن بعد عنها ليصعد المئذنة ويدعو إلى صلاة العصر من خلال الميكروفون .. وقامت وأدت صلاة العصر وخرجت من الجامع متعمدة ألا تلتفت إلى مرتضى حتى لا تلتقى بعينيه ..

وعادت إلى وحدتها فى بيتها وذكريات ساعاتها فى الجامع تشغل كل خيالها .. وإن كانت صورة مرتضى قد بدأت تشغل فترات أوسع من هذا الخيال ..

وذهبت فى اليوم الثالث .. والجامع كما هو خال دائما .. وأدت صلاة الظهر قريبة من الشيخ جاسم .. ثم سمعت مرتضى يدخل وهو يعلن التحية .. وإذا بالشيخ جاسم يقول لها :

ــ إنه مهندس من مصر أيضا .. وهو كامل الإيمان .. وأعتز بصداقته واختياره للجامع الذى يجمعه بى .. بل أحس كأنى أتبرك به كما يتبرك هو بهذا الجامع ..

ولم ترد عدلية بكلمة .. ولكن الشيخ انتظر حتى انتهى مرتضى من صلاة الظهر وناداه إلى الانضمام إليهما ليشاركهما بحوثهما فى الدين .. كأنه يناديه إلى الاستماع إلى خطاب يلقيه .. دعوة ليس فيها ما يخدش طهارة الجلسة .. وجاء مرتضى وجلس بجانب الشيخ جاسم بعيدا عن عدلية دون أن يصافح كأنه يخاف أن يخدش طهارته بلمس امرأة .. وكان هذا هو أول لقاء يجمعهما .. وعدلية تستجمع كل قواها خلال الحديث

الذى يدور بينهم حتى تقاوم رجفات عينيها كلما نظرت إليه ..

وحانت صلاة العصر وأوصاهما الشيخ جاسم بانتظاره إلى أن يؤذن .. وجلسا وحدهما لا يتبادلان أى كلمة كأن ليس من حق أحدهما أن ينفرد بالآخر ولو فى حديث .. إلى أن عاد إليهما الشيخ جاسم .. وأم بهما صلاة العصر .. هو فى المقدمة ومن خلفه مرتضى وعدلية واقفة خلف مرتضى ..

وتركت عدلية الجامع مباشرة بعد أداء الصلاة .. وهى تحس بإقدامها على هذا المجهول الجديد .. إن مرتضى يشغل بالها .. لا تدرى لماذا .. ولكنها يجب أن تبلغ زوجها بحكاية أدائها الصلاة فى الجامع فقد تعرفت فيه إلى رجل غريب وليس من حقها أن تلتقى بغريب دون استئذان زوجها .. وانتهزت ساعة الصباح وزوجها يحملها فى سيارته إلى المدرسة .. وهى ساعة تكون رائحة الخمر التى تفوح منه خامدة .. وقالت له :

ـــ إنى بدأت أتعود بعد انتهاء المدرسة أن أؤدى صلاة الظهر فى الجامع ..

ورد عليها كأنه يشفق عليها من جنونها قائلا :

ـــ ما دمت تستطيعين الذهاب إلى الجامع بعد انتهاء عمل المدرسة ، فلماذا لا تذهبين إلى عمل آخر يوفر لك دخلا آخر .. أى تبحثين عن عمل يشغلك بعد الظهر .. هذا ممكن فى هذا البلد ..

ولوت عدلية شفتيها سخطا .. إنه لا يقدر أبدا تدينها وهو نفسه لا علاقة له بأى دين .. سواء الإسلام أو غيره من الأديان .. وقالت فى حدة :

ـــ لا أريد ولن أبحث عن أى عمل آخر .. ولا عن أى درهم أكثر ..

ولم تتم حديثها عن الجامع الذى تصلى فيه ، ولم تبلغه أنها تعرفت فيه بمرتضى رفعت ..

ويومها أطالت جلستها فى الجامع إلى ما بعد صلاة العصر .. ويوما بعد يوم يشتد ارتباطها بالصلاة فى الجامع حتى بدأت تعترف أنها لم تعد مرتبطة بمجرد الصلاة .. إنها تحس بدوافعها لرؤية مرتضى .. كأنها أيضا أصبحت مرتبطة به .. رغم أن كل ما بينهما لا يتجاوز هذه الجلسة المتجردة إلا من ذكر الله .. كأنها جلسة فى السماء .. ولا تشوبها لمسة بينها وبينه .. حتى إنهما لا يتصافحان حتى تلمس يدها يده .. وإن كانت عيونهما بدأت تتعود على الالتقاء فى نظرات بدأت تزداد تعبيرا عن خوالج قلب كل منهما .. ما هذا ؟ لعله الحب الذى يجمع بين رجال ونساء قد بدأ يجمعهما .. وهى لم تعترف أبدا بهذا الحب .. ولكنها بدأت تحس كأنها تقاومه .. تريد أن تهرب من الحب قبل أن يأسرها .. تريد أن تهرب من مرتضى .. وقالت لزوجها فى حدة :

ـ أريد أن أسافر إلى مصر ..

وقال فى برود :

ـ إن مصر بلدنا وملك لنا ونستطيع أن نعود إليها كلما أردنا .. وأنا لا أريد بعد ..

وقالت كأنها تستجدى :

ـ لقد مضى عامان وأنا بعيدة عن أهلى .. وأصبحت أعانى الشوق إليهم .. أريد أن أراهم وأطمئن عليهم ..

وقال بلا مبالاة :

ـ سافرى إليهم وحدك ..

وقالت وهى تكاد تصيح :

ـــ أريد أن يرانى أهلى بعد أن أصبحت زوجة .. أى يرونى وحياتى تجمعنى بزوج .. ويجب أن تكون معى .. لعل الحياة بين الأهل تجمع بينى وبينك أكثر .. وإنى أخشى لو سافرت إلى مصر وحدى ألا أعود ..

وقال عبد الحميد فى هدوء مفتعل :

ـــ اسمعى يا عدلية .. إننا نقيم فى هذا البلد لتحقيق هدف واحد وهو أن نجمع الأموال ونحقق الثراء إلى أن نصل إلى ما نعتبره كافيا .. وإلى الآن لم أجمع ما يقنعنى بالاكتفاء .. والحياة هنا رغم أنها توفر كل ما نحتاج إليه بل ونطمع فيه إلا أنها ليست سهلة .. فأنا مثلك أعانى الشوق إلى بلدى وإلى عائلتى وأصدقائى .. بل وإلى زحام مصر وصخب الحياة فيها .. حتى إنى أشعر كما تشعرين بأنى لو عدت إلى مصر فلن أتركها أبدا .. ولذلك فإنى لن أعود إليها أبدا إلا إذا قررت أن أبقى فيها .. أى بعد أن أكون قد حققت ما أريده فى هذا البلد ، والذى لم أحققه كله بعد ..

وسكتت عدلية لحظة كأنها تحاول أن تتخذ قرارا ، إلى أن صاحت :

ـــ مادمت لن تسافر معى فلن أسافر وحدى ..

ولعلها لم تتخذ هذا القرار لاقتناعها بما يقوله زوجها .. ولكن لأنها وجدت حجة لعدولها عن مقاومة الحب .. والاستسلام للقائها مع مرتضى ..

وهى كل يوم فى لقاء معه داخل الجامع .. وقد بدأ الحديث بينهما يتسع ليتحدث كل منهما عن حاله وعن حياته الخاصة .. وكان الشيخ جاسم يتركهما فترات ليشرف على شئون الجامع فيتسع الحديث بينهما وحدهما أكثر ويتصارحان أكثر .. وقد قال لها مرتضى إنه تزوج منذ خمس

سنوات .. ذهب إلى القاهرة وانتقاها من سوق الزوجات دون أن يعرف عنها إلا ملامحها .. وعاد بها إلى هنا لتقيم معه ، وكلما عرفها أكثر تباعد عنها أكثر .. وهى عاجزة عن الإنجاب حتى يجمعهما ولو مجرد الارتباط بمولود .. إن حاله هو نفس حالها .. وتروى له نفس القصة . إنها تزوجت من المجهول جاء وانتقاها من سوق الزوجات .. وكل ما تكشف لها عن هذا المجهول لم يحقق لها أى حلم من أحلامها .. وقد تعمدت ألا تنجب منه إلا بعد أن تجد فيه ما يطمئنها على مستقبلها .. وهى إلى الآن لم تجد فيه ما يطمئنها .. إنها تعيش معه كأنها محكوم عليها حكما شرعيا بالمعاناة ..

* * *

وقال لها متنهدا وعيناه تحتضنان عينيها :

ـــ إنى أدعو الله فى كل صلاة ألا يحرم أحدنا من الآخر ..

وقالت وكأنها تذرف دموع اليأس :

ـــ إن الله سبحانه وتعالى قد تركنا للقدر دون أن يمن على أحدنا بالآخر شرعا .. قد تسافر .. وقد أسافر أنا .. ونحرم حتى من أن أراك وترانى .. نحرم من جلستنا معا بين يدى الله ..

وقال فى إصرار :

ـــ لنتزوج ..

وصاحت وكأنها قد صدمتها دهشة :

ـــ كيف .. إنك زوج .. وأنا زوجة ..

وقال متنهدا وهو يرفع عينيه كأنه يخاطب الله :

ـــ لا بد أن هناك ما يحقق جمعنا .. إن الله فرض الشريعة ولكنه لم يفرض الشقاء على خلقه .. وفرض الفضيلة مع ما يحمى المخلوق من دفعه

إلى الخطيئة ..

ومضت أيام وهما يبحثان عن الطريق الذى يجمعهما شرعا .. وقد أشركا الشيخ جاسم فى بحثهما .. والشيخ جاسم يثق فى إيمان وفضيلة كليهما .. حتى تحمس معهما لإنقاذهما قبل أن يصلا إلى الخطيئة .. وقال لمرتضى إن الشرع يتيح له أن يجمع بين زوجته وزوجة ثانية .. خصوصا وأنها لا تنجب ..

وقاطعه مرتضى قائلا فى تأكيد :

ــ إنى لا أريد أن أجمع بين عدلية وزوجتى .. لم أعد أطيق الحياة إلا مع عدلية وحدها ..

وقال الشيخ جاسم فى هدوء :

ــ إن الله منحك حق الإرادة ولكنه لم يمنح هذا الحق لعدلية .. إنها لا تستطيع أن تتزوج وهى زوجة .. أى أن تعدد المرأة الأزواج كما يعدد الرجل الزوجات .. وله فى ذلك حكمة ..

وصاح مرتضى :

ــ إن الإسلام يحمى الخلق من الخطيئة ، فكيف يحمينا منها وقد أصبحت الشياطين فى معركة مع الملائكة فى داخلنا ..

وطالت الأحاديث وتشتتت الأفكار .. إلى أن دخلت عدلية الجامع فى موعدها فوجدت مرتضى على غير عادته قد سبقها إليه .. وألقت عليه بتحية الإسلام ثم أدت صلاة ركعتين تحية للجامع ثم أربع ركعات فرض صلاة الظهر .. ثم طوت ساقيها تحتها وجلست بجانبه تسأله :

ــ ماذا أتى بك مبكرا قبل انتهاء موعد عملك على غير عادتك ؟..

وقال مرتضى فى هدوء :

— لقد كان الشيخ جاسم ينهى لى أوراق الطلاق .. لقد طلقت زوجتى ..

وقالت فى هلع :

— وما ذنبها ؟..

وقال مرتضى ولم تكن تبدو عليه فرحة ولكن تبدو عليه الراحة :

— لقد حققت لها أمنية .. فهى أيضا كانت تريد الطلاق وإن لم تطالب به .. لقد كنا نعيش كاثنين من المساجين فى زنزانة واحدة .. وهى لا تزال صغيرة .. ولعلها كانت تعيش على حلم أن تكون زوجة لرجل آخر يحبها ويسعدها .. وقد فتحت لها مجال تحقيق هذا الحلم رأفة بها .. وقبل أن تشيخ فى هذه الزنزانة وتفقد حتى مجرد الحلم .. بقى أن نحقق الأصعب ونكتسب حياتنا معا .. أن يرأف بنا الله كما دفعنى إلى الرأفة بزوجتى وتطليقها ..

ولأول مرة تمد عدلية يدها وتربت على يد مرتضى كأنها تواسيه .. وقد عادت يومها إلى بيتها وفكرها مزدحم بالقرارات والتخطيطات وهى تائهة حائرة .. إلى أن عاد زوجها بعد الساعة السادسة مساء كعادته .. ولم تراع حرصها على ألا تجلس معه وتحادثه وهو ينفث رائحة الخمر حوله ..

وقالت له منطلقة فى إصرار :

— عبد الحميد .. لم أعد أطيق .. طلقنى ..

وقال عبد الحميد فى برود كأنه لم يفاجأ :

— لماذا .. هل تريدين العودة إلى القاهرة ؟

وقالت فى حزم :

— لا .. إنى مرتبطة بعملى فى المدرسة هنا .. والطلاق لا يفرض على

أحدنا أين يكون وأين يعيش ..

وقال قاطعا :

ــ إن كل إجراء يقوم على أسباب .. ولا أستطيع أن أقدم على الطلاق إلا إذا اقتنعت بأسبابه .. فما هى هذه الأسباب ؟..

وصاحت عدلية :

ــ يكفى أنى لم أعد أطيق .. ولا شك أنك تشعر بأنى لم أعد أطيق الحياة معك ..

وقال عبد الحميد ساخرا :

ــ كل خلق الله يعيشون الحياة وهم يعانون ما لا يطيقون ..

وأصر على عدم الاستجابة لطلبها الطلاق .. وحتى لو عادت إلى القاهرة فلن يطلقها إلا إذا اختار هو لا هى الطلاق ..

ومن ليلتها بدأت عدلية تنام فى غرفة أخرى من غرف البيت البعيدة عنه .. كأنها قررت أن مجرد أن يلمسها أصبح يعتبر حراما .. ثم بعد يومين جمعت حاجاتها وانتقلت إلى الإقامة فى البيت المخصص لمدرسات المدرسة .. وعبد الحميد يراعى ألا تثير تصرفاتها كلام المجتمع وخصوصا المجتمع المصرى فى هذا البلد .. ويطلق تفسيرات لانتقالها إلى الإقامة فى بيت المدرسات بأنها تريد فترة تتفرغ خلالها لعلمها .. وهو مصر على عدم الطلاق ..

وكانت عدلية تذهب كل يوم إلى الجامع وتبكى بين يدى مرتضى والشيخ جاسم .. وهم ثلاثتهم يريدون أن يتم الطلاق .. إلى أن استطاع الشيخ جاسم أن يحدد موعد لقاء مع عبد الحميد نفسه .. وذهب إليه وبدأ يقول له فى رفق :

ـــ إن السيدة عدلية مؤمنة تعيش الإسلام وتؤدى الفروض .. وأنا أعتز وأفخر بها وأدعو الله أن يرفع كل المسلمات إلى إيمان عدلية .. وقد جاءتنى ترجونى التوسط لديك لإقناعك بأن تحقق لها أبغض الحلال عند الله .. وهو الطلاق .. وأقنعتنى فعلا بدوافعها إلى المطالبة بهذا الحلال البغيض .. إن التباعد بينكما واسع .. وأوسع ما فيه أنها تقيم حياتها على الإيمان وأداء الفروض وأنت لا تعبر عن إيمانك ولا تؤدى فرضا .. لقد قالت لى إنها أصبحت تعيش كأنها أسيرة لكافر ..

وسكت الشيخ جاسم يلتقط أنفاسه ، ثم قال ولهجته تحمل معنى التهديد :

ـــ ثم إنك كما قالت لى تشرب الخمر .. ولعن الله من جالس شارب الخمر .. وعدلية تكاد تشعر بأنها أصبحت ملعونة من الله لأنها تجالسك وتعيش معك .. والحمد لله أن مجتمع المسلمين فى هذا البلد لا يزال يتغاضى عن مسلم من بينهم شارب الخمر .. وإلا ثاروا عليه وطردوه من بلدتهم ..

وكأنه يهدده بالثورة عليه وطرده من البلد .. والشيخ جاسم له فى تقدير الزوج مركز خاص .. فهو من أهل البلد وله مكانة خاصة بين الحكام .. ولذلك يخشاه .. وقد تلقى كلامه فى استسلام كأنه لا يستطيع إلا أن يستجيب له .. ولكنه قال :

ـــ لقد تزوجت عدلية كصفقة من صفقات الحياة .. وهى صفقة كلفتنى غاليا : المهر .. والشبكة .. والهدايا .. والإعالة .. و .. و .. ولكن هذه الصفقة لم تحقق لى أى ربح .. ولا حتى الربح النفسى بإسعادى حتى أعمل أكثر وأنتج أكثر .. وأنا متمسك بعدلية حتى تحقق لى

ما يعوضنى عن التكاليف التى أنفقتها عليها ..

وفهم الشيخ جاسم وقال فى هدوء :

ــ لقد أبلغتنى عدلية أن ترد إليك كل ما أنفقته لإقامة حياة معها .. وتتركها لحياتها وحدها ..

ولم تكن عدلية قد أبلغته بشىء من ذلك .. لقد انتابتها نوبة من السخط والقرف عندما أبلغها الشيخ جاسم بما يريده عبد الحميد ليطلقها .. وقد جمعت كل ما تملكه وكل ما ادخرته بما فيه حلية الشبكة والحلى التى كانت قد أهديت إليها .. وتنازلت عن كل ما لها فى البيت .. وأضاف عليه مرتضى من أمواله الخاصة .. كما اضطر الشيخ جاسم نفسه أن يضيف .. إلى أن جمعوا ما يكتفى به عبد الحميد لتوقيع ورقة الطلاق ..

ولم تمر الشهور الثلاثة التى تفرض على الزوجة بعد أن يتم طلاقها حتى تتزوج من آخر .. بل اختصرها الشيخ جاسم وحسبها منذ أن هجرت الزوجة زوجها لا منذ وقعت ورقة الطلاق .. وبعد شهر واحد كان يعقد الزواج بين عدلية ومرتضى .. وأمهما بعد الانتهاء من كتابة العقد فى صلاة ركعتين شكرا لله تعالى .. واستأذنت عدلية فى أن تستمر وحدها فى صلاة أربع ركعات زيادة فى شكر الله .. ثم قامت تكتب خطابا طويلا إلى أهلها تروى قصة طلاقها من عبد الحميد وزواجها من مرتضى .. كأن ليس من حقهم إلا أن يعرفوا دون حاجة إلى أن يتدخلوا ولو بآرائهم ..

* * *

وكان المجتمع المصرى فى هذا البلد البعيد قد تلقى خبر طلاق مرتضى من زوجته الأولى فى بساطة .. كما تلقى خبر طلاق عدلية من عبد الحميد فى بساطة أيضا .. فإن الطلاق يتم بين المهاجرين فى بساطة نتيجة ظروف

الغربة .. والوحدة بعيدا عن الأهل .. والملل والزهق من ركود المجتمع الذى يجمعهما ..

ولكن عندما تم زواج عدلية بمرتضى ثارت ضجة فى كل المجتمعات .. بعضها ثورات عنيفة .. وبعضها ضجة متندرة بحكاية من حكايات الحب ..

لقد جمعهما الحب داخل جامع .. والجوامع لا ينطلق فيها إلا حب الله .. فكيف يحس أى رجل بأى امرأة وهو داخل الجامع ..

ثم إن الشيخ جاسم بارك هذا الحب وعمل على الجمع بين الرجل والمرأة .. وهو ليس له مهمة إلا حصر الناس فى إحساسهم بحب الله ..

وبدأت القصة تصور كأنها فضيحة تشمل المجتمع كله والبلد كله ..

وتحركت الجهات الرسمية لفض هذه الضجة وعقاب المفضوحين .. وصدر قرار بعزل الشيخ جاسم عن إمامة هذا الجامع أو أى جامع .. كما طرد مرتضى من عمله الذى يعيش منه كما طرد من البلد كله .. وتركت عدلية المدرسة قبل أن يصدر القرار بطردها ..

والشيخ جاسم لا يزال رغم طرده من الجامع هادئا وقورا يعيش تعلق المسلمين به واللجوء إليه كإمام من أئمة الإسلام .. وابتسامته الحانية معلقة دائما بين شفتيه كأنها ابتسامة إشفاق على العاجزين عن الوصول إلى هداية الله .. إن الجامع — كما يقول — هو ما يجمع المسلمين بين يدى الله .. اللاجئين إليه مستغيثين به .. أى أنه ليس مجرد موقف كمواقف السيارات يقف فيه الناس لأداء فروض الصلاة .. بل هو بيت المجتمع الإنسانى يجمع بين المسلمين ليتداولوا فى مشاكلهم الدنيوية .. وقد كان محمد ﷺ يقود الناس ويحل المشاكل بين الأفراد من داخل الجامع .. بل

إن الله فرض الحج إلى بيته لمن استطاع إليه سبيلا لا لمجرد التبرك به وتأكيد إيمانهم ، إنما ليتبادل المسلمون بين بعضهم وبعض مناقشة سبل حماية الإسلام .. تجمهم الوحدة فى حب الله .. وحب الله لا يكتمل إلا بحب المسلمين بعضهم لبعض .. وقد نبتت داخل الجامع حالة حب بين مرتضى وعدلية .. حب صاف نظيف يقاوم الشيطان .. فتدخل فى حالتهما حتى يعينهما على الانتصار على الشيطان .. وانتصر بهما فعلا على الخطيئة .. انتصر على الشيطان .. دون أن يظلم أحدا أو يجعل لانتصاره شهيدا أو ضحية .. إنما أزاح وضعا لم يفرضه الله .. فالله لا يفرض الزواج إلا على أساس الرضاء الكامل للزوج والزوجة .. واستمرار هذا الرضاء العمر كله .. وقد كان فى كل ما فعله يعيش هداية الله .. فالله هو الهادى للحب بين البشر .. ورغم ذلك فلا يزال الشيخ جاسم حتى اليوم محروما من الإشراف على أى جامع ..

أما مرتضى وعدلية فقد غادرا هذا البلد دون أن يفقد أحدهما فرحته بالآخر .. والاثنان مؤمنان بأن الله سبحانه هو الذى جمعهما وجمعهما فى أطهر مكان يتوجهان منه إليه .. جمعهما فى جامع يؤديان على أرضه الصلاة ..

ولم يعودا إلى مصر كأنهما مضطران لمداراة فضيحة .. فهما يعيشان الآن فى بلد آخر غريب بعيد .. كأنهما يحسان فى الغربة باقترابهما أكثر من الله سبحانه وتعالى ..

وأصبحت عدلية حاملا ..

تتطلع إلى مزيد من رضاء الله عليها .. فقد وفر لها الزوج الذى تحبه ، وسيزيدها من فضله بأن يمتعها بأعلى درجات الحب ..

لن تعود أيام زمان

كانت مفاجأة للوسط الصحفى كله عندما عين الأستاذ محمود عوض الله رئيسا لتحرير مجلة اليقظة .. فالأستاذ محمود صحفى قديم كان رئيسا للتحرير منذ قبل الثورة .. وكان فعلا رئيسا محترما ناجحا .. كان يصل بتوزيع « اليقظة » إلى قمة أرقام التوزيع بين المجلات .. ولكنه لم يستطع أن يتجاوب مع مطالب الحكم بعد الثورة رغم أنه لم يرفض الثورة ولم يقف ضدها .. وعجزه عن التجاوب مع مطالب الحكم كان بسبب إصراره على التمسك باستقلاله الصحفى ..فهو يعتبر الصحافة فنا تخصصيا لا يستطيع أن يقدمه إلا فنانون .. وليس بين الحكام والمسئولين كبيرهم وصغيرهم فنان صحفى .. أو حتى من يمكن أن يفهم شيئا عن الفن الصحفى .. إن كل ما يفهمونه هو أن الصحافة كلمات مطبوعة على أوراق توزع على الناس .. دون أن يقدروا أن الكلمة لا يمكن أن تكتسب قيمتها الصحفية إلا بقيمة فن صياغتها .. والأوراق لا يمكن أن تجتذب القارئ إلا بقيمة إمدادها الفنى الذى يوفر لها قوة جذب القارئ .. فكيف يتدخل هؤلاء الحكام فى الصحافة ويصدرون أحكاما ويفرضون مطالب تناقض الفن الصحفى وتهدمه .. وقد كانت نتيجة إصرار محمود عوض الله على التمسك باستقلال الفن الصحفى عن الحكومة أن طرد من رئاسة التحرير .. ومن بعده أصبحت اليقظة مجرد مؤسسة حكومية يتحمل مسئوليتها عدد من الموظفين الحكوميين يتقاضى كل منهم مرتبه كموظف لا كفنان صحفى .. وهو نفسه استسلم للوظيفة .. وعاش

ساخطا متباعدا عن فنه .. إلى أن فوجئ الوسط الصحفى بعودته رئيسا للتحرير .

ولكن محمود عوض الله قد تعدى سن المعاش التى فرضتها الحكومة أخيرا على الصحفيين .. وأصبح كل صحفى يتعدى سن الستين محروما من تحمل أى مسئولية مباشرة فى إصدار الصحف .. أى مسئولية مباشرة مع الحكومة .. فكيف استثنى محمود عوض الله من قانون المعاش .. مع أن مجلة « اليقظة » ليست مجلة حرة ولكنها مجلة من بين المجلات التى تملكها الحكومة .. وإن كانت الحكومة تدعى أنها مملوكة لمجلس الشورى الذى تسيطر عليه بأغلبية أعضاء حكوميين .. وكلهم معينون حتى لو كانوا منتخبين ..

وقد سئل المسئول الكبير السيد محرم المرجوشى الذى يعتبر مسئولا عن استثناء محمود عوض الله وتعيينه رئيسا للتحرير .. عن دوافع هذا الاستثناء .. فقال كأنه يتباهى بقدرته على إحقاق الحق :

ـ لقد كنت منذ صباى متعلقا بمجلة اليقظة .. وكان الأستاذ محمود عوض الله قادرا دائما على إقناعى بالرأى الذى يقدمه لى والاتجاه الذى يدعونى إليه .. ولم أكن وحدى .. كانت أغلبية الشبان متعلقة به .. وبعد أن ابتعد عن مسئولية إصدار « اليقظة » لم أعد أجد فيها ما يكفى لإقناعى أو يجذبنى إلى أى اتجاه ، ثم بعد أن أصبحت مسئولا تأكدت من أن المجلة فقدت كل قدرتها على اجتذاب جماهير القراء .. وهبط توزيعها حتى لم يعد لها أى أثر فى التوجيه .. لذلك سعيت بين بقية المسئولين حتى استطعت أن أعيد محمود عوض الله إلى رئاسة تحرير مجلة اليقظة لعلها تستعيد قوة الجذب والإقناع التى كانت لها .. ونجحت فى استثنائه من

تطبيق قانون الإحالة على المعاش ..

وقيل للسيد محرم المرجوشى :

ـ إن معظم رؤساء التحرير الذين عرفوا بتحمل مسئوليات صحف قوية ناجحة قد أحيلوا إلى المعاش .. فهل يعودون هم الآخرون إلى تحمل مسئولياتهم .. هل يلغى قانون إحالة الصحفى على المعاش باعتبار أن الصحافة عمل حر وليس وظيفة حكومية ..

وسكت السيد محرم المرجوشى برهة قبل أن يجيب .. فهو يعلم دوافع إصدار هذا القانون الخاص بإحالة الصحفيين إلى المعاش .. كانت كل دوافعه منحصرة فى أن القيادة العليا كانت قد ضاقت بأفراد الجيل الصحفى الذى يتحمل المسئولية المباشرة لكل صحيفة .. إن معظمهم من أفراد الجيل القديم الذى عاش بشخصية حرة مستقلة قبل الثورة .. وظل متأثرا بهذه الشخصية بعد الثورة .. والحل الوحيد للتخلص من هذا الجيل هو تحميل مسئولية الإشراف لجيل جديد .. فلا شك أن الجيل الصحفى الذى وجد بعد الثورة يحمل شخصية أكثر تجاوبا واستسلاما لما تفرضه الثورة .. سواء كانوا مؤيدين أو معارضين .. والطريق الوحيد لتحقيق هذا الحل هو إصدار قانون يفرض على التنظيم الصحفى الإحالة على المعاش ..

ولكن محرم المرجوشى لم يقل ما يعلمه وما يدور بخاطره .. ولكنه قال :

ـ لقد سعيت إلى إعادة محمود عوض الله لتحمل المسئولية لأن له فضلا خاصا على منذ بدأت وعيى .. كأنى كنت أعرفه معرفة شخصية رغم أنى فى الواقع لم أكن أعرفه إلا كقارئ .. وكان سعيى هو لإعادة نشر

فضله على الأجيال الجديدة .. أما باقى الصحفيين الذين أحيلوا على المعاش فلا يربطنى بهم هذا الدافع بنفس القوة .. دافع الاعتراف بالفضل .. كما أن إلغاء قانون المعاشات كله من التطبيق على الصحفيين يعتبر موضوعا آخر يحتاج إلى مساع أخرى .. لذلك فقد اكتفيت باستثناء محمود عوض الله ..

* * *

وعقد رئيس التحرير محمود عوض الله أول اجتماع له مع المحررين .. وبدأ يتحدث إليهم فى لهجة أستاذ كبير يلقى محاضرة على أبنائه الطلبة .. وكان يقول :

— إن مسئولية الصحافة هى إطلاع القارئ على الواقع الذى يعيش فيه حتى يستطيع أن يحدد موقفه من هذا الواقع ورأيه فيه .. والواقع ليس مقصورا على الواقع السياسى .. بل إن الواقع السياسى لا يكتمل للقارئ فهمه واستيعابه إلا بإطلاعه على الواقع الاجتماعى .. والواقع الاجتماعى لا يكتمل فهمه وتفسيره إلا بإطلاع القارئ على الواقع الاقتصادى .. وهذا الواقع يؤثر بالتالى على الواقع الفنى والأدبى .. وهكذا .. وقد صدرت مجلة « اليقظة » منذ بدايتها وهى تعتبر مجلة سياسية .. ولكن بجانب اهتمامها بنشر الأخبار والآراء السياسية كانت تبذل نفس الاهتمام بنشر الأخبار الاجتماعية التى تبدو كأنها بعيدة عن السياسة .. خصوصا أخبار مجتمع الطبقة الحاكمة .. وقبل الثورة كان يمثل هذه الطبقة الأمراء والباشوات وأصحاب الأرض والمليونيرات من أصحاب الشركات .. وكنا ننشر أخبارهم الاجتماعية بدون تعليق .. ودون المساس بالعلاقات الخاصة التى قد تثير فضائح شخصية .. مجرد خبر ننشره عن أن فلانا أقام

حفلا ساهرا فى قصره دعا إليه أفرادا من مجتمعه .. وقد أحيت هذا الحفل هذه الفرقة الموسيقية .. وأطرب المدعوين المطرب الفلانى .. وكانت فلانة هانم ترتدى هذا الثوب .. وعلانة هانم ترتدى ثوبا مختلفا .. وقدم للمدعوين كذا وكذا .. وبلغت تكاليف الحفل كذا من مئات أو آلاف الجنيهات .. و .. و .. كنا لا نزيد على إطلاع القارئ على تفاصيل واقع هذا الحفل بلا أى تعليق .. وكنت مقتنعا بأن هذه الصفحات الاجتماعية لها نفس تأثير المقالات السياسية فى تكوين الرأى العام المصرى وتحديد موقفه .. وأعتقد أنها صفحات أدت بالرأى العام إلى تحقيق الثورة .. لأنها كانت تكشف له عن واقع لا يريده داخل بلده .. ولكن مثل هذه الصفحات لم تعد تظهر فى أى صحيفة مصرية بعد أن قلبت الثورة الوضع الاجتماعى الطبقى الذى كان قائما ... ولكن مع هذا الانقلاب ظهرت طبقة اجتماعية جديدة .. طبقة تمثل الحكام والمسئولين عن الحكم .. أى الطبقة الحاكمة التى تظهر مع كل وضع اجتماعى مهما تغير .. ولكن الصحافة لم تعد تحاول إطلاع القارئ على الواقع الاجتماعى لهذه الطبقة .. هل تقام فى البيوت سهرات فخمة كالتى كانت تقام فى بيوت الطبقة الحاكمة السابقة .. ولماذا سافر فلان إلى باريس وكيف عاش هناك .. والزوجات والأبناء ما هى أخبارهم .. و .. و .. إن كل أفراد هذه الطبقة يعتبر كل منهم شخصية عامة يصل اهتمام الرأى العام بها إلى حد التطلع إلى معرفة كل مظاهرهم الاجتماعية .. ولكن الحكم بعد الثورة حرم على الصحف نشر ما يتعلق بالواقع الاجتماعى الذى تعيشه الطبقة الحاكمة .. كأنها طبقة أصبحت تعيش كجمعية سرية .. ولم يعد ينشر من الأخبار الاجتماعية إلا أخبار صفحة الوفيات .. أو أخبار أعياد الميلاد .. أو أخبار

إتمام الزواج بين ابن فلان وابنة فلان من أفراد الطبقة الحاكمة دون الإشارة إلى الحفلات الفخمة السخية التى أقيمت بهذه المناسبة .. أخبار تنشر كأنها مجرد إعلانات احتراما للشرع الذى يفرض إعلان الزواج .. وكانت نتيجة حرمان القارئ من أن يعيش الواقع الاجتماعى للطبقة الحاكمة أن أصبح يستسلم للإشاعات .. وهى إشاعات تحمل إليه كثيرا من الفضائح والاختلاسات والسرقات والمظاهر النكراء .. وقد يكون من أفراد هذا المجتمع شخصيات فاضلة تعتبر قدوة لمجتمع نظيف طاهر .. ولكن هؤلاء الأفراد أيضا راحوا ضحية الإشاعات التى تطلق على هذا المجتمع عامة ، وتطغى بالاتهامات على كل أفراده .. حتى لم يعد فى نظر الرأى العام أى فرد نظيفا من أفراد الطبقة الحاكمة .. وكأن قيادة هذه الطبقة عندما فرضت سيطرتها على الصحافة وقيدت حرية الفن الصحفى وخنقته إنما خنقت نفسها وعرضت نفسها لما هو أقسى عليها وأقدر على افتراسها .. أى عرضت نفسها للإشاعات .. كما فقدت العنصر الذى كان يمكن أن تعتمد عليه فى الاطمئنان على سلامة ونظافة المجتمع الذى تعيشه .. وهو عنصر الرهبة التى تفرضها الصحافة على كل المجتمعات .. الرهبة من الكشف عن الواقع ونشر تفاصيله على الرأى العام ..

ووقف رفعت فوزى المحرر الفنى لمجلة « اليقظة » وقال لرئيس التحرير كأنه يدافع عن نفسه :

— إنى حريص على أن أقدم للقارئ واقع المجتمع الفنى بكل تفاصيله وخباياه ..

وابتسم رئيس التحرير وقال بلهجة الأستاذ الذى يشفق على طالب :

ـــ آسف يا أستاذ .. إن ما تنشره صفحة الفن لا يتجاوز الإعلان عما يقدمه كل فنان من أعمال فنية .. إعلان عن أغنية جديدة أو مسرحية جديدة أو عن فيلم سينمائى أو تليفزيونى جديد ... مجرد إعلانات .. حتى إن كثيرين من محررى صفحات الفن أصبحوا يعتبرون فعلا من مندوبى قسم الإعلانات فى المجلة .. والواقع الفنى أوسع من ذلك بكثير .. فهو واقع قائم على مناقشات فنية صاخبة قد تصل إلى حد الخناقات والقطيعة بين فنان وآخر : خناقة بين ممثل ومخرج .. أو خناقة بين فنانة وأخرى .. وقد كنا زمان ننشر مثلا قصصا عن الخلافات بين أم كلثوم وإسمهان .. وكانت قصصا تعبر عن الطموح الفنى لكل منهما .. وتشد القارىء إلى واقع كل منهما وتزيده انجذابا لهما .. ثم إن الفنان الناجح لا يعتبر مجرد فنان بل إن نجاحه يخلق به شخصية عامة تصبح ملكا للقارىء ويتعلق بكل ما يخص هذه الشخصية حتى بعيدا عن الفن .. فالقارىء حريص مثلا على الاستماع إلى كل ألحان محمد عبد الوهاب مهللا بمتعته بها .. ولكنه فى الوقت نفسه يريد أن يتابع كل حياة عبد الوهاب الخاصة .. لماذا يسافر إلى باريس ويغيب فيها شهورا طويلة .. وكيف يقضى أيامه فيها .. وما هى تفاصيل ما يعانيه صحيا .. وكيف تراعيه زوجته .. كل هذا الواقع لا تحرص الصفحات الفنية على تقديمه للقارىء كأنه مسئوليتها الأولى .. وسأعرض عليك مثلا آخر : إنى منذ أيام شاهدت الفنانة الرائعة هنية مهنى على شاشة التليفزيون .. ورغم أنها كانت تشدنى كلى إلى فنها إلا أنى طول مدة العرض لم أستطع أن أتجاهل الثوب الرائع الفخم الذى كانت تظهر به .. حتى أصبح هذا الثوب يشدنى إلى تساؤلات كثيرة : من أين اشترته .. من أوربا أو من القاهرة .. ومن هو مصمم الأزياء الذى رسمه

على قوامها .. وكم يبلغ ثمنه يا ترى .. آلافا .. أم مئات ؟ وتأكد أن كل هذه التساؤلات دارت فى عقول كل الجمهور المشاهد .. ورغم ذلك لم تحاول الصفحات الفنية تقديم أخبار عن واقعية هذا الثوب حتى نريح القراء ..

وقال المحرر الفنى رفعت فوزى كأنه يلوم رئيس التحرير :

ـــ المفروض ألا تتعرض الصحافة لأخبار الفنانين الخاصة ..

وصاح رئيس التحرير كأنه ينهره :

ـــ إنى لا أطالب بنشر الأخبار الفردية الخاصة بكل فنان .. ولكن كل ما يظهر به الفنان أمام الجمهور لا يعتبر أخبارا خاصة بل هى أخبار عامة يصبح من حق الجمهور أن يعرف تفاصيل واقعها .. وكذلك كل تصرف من تصرفات الفنان يمكن أن تمس المجتمع الفنى كله الذى تقوم الصحافة بحمايته وترشيده ، وتحذير كل فنان يقدم على خطيئة اجتماعية من تعريض نفسه لفضيحة .. وأنا أعلم أن الحكم فرض على الصحافة عدم كشف ما يمكن أن يمس المجتمع الفنى بحجة الحرص على احترام الفن المصرى .. وكانت نتيجة هذا التقييد أن شوهت الإشاعات كل هذا المجتمع .. حتى إنه قبض على فنانة بتهمة تعاطى المخدرات وحكم عليها بالسجن فإذا بالرأى العام يحكم على كل الفنانين بتعاطى المخدرات .. ولو كانت الصحافة قد بدأت بالكشف عن واقع هذه الفنانة لأنقذتها هى نفسها من القبض عليها .. ولأنقذت المجتمع الفنى كله من التعرض للإشاعات .. المجتمع الذى استطاع أيام حرية الفن الصحفى أن يصل إلى قمة الاحترام .. ثم بدأ يهدمه ويهدم احترامه تقييد هذه الحرية .. لهذا فالثوب الذى ظهرت به الفنانة أمام الجمهور لا يعتبر من أخبارها الخاصة .. إنه حدث عام ..

ولذلك فإنى ألومك على إهمالك فى خدمة القراء .. خصوصا وأن الحرية عادت إلى الفن الصحفى وأصبحنا نستطيع أن نستعيد القارئ إلى صحفنا المصرية بعد أن كان لا يجد ما يربطه بالواقع إلا بقراءة الصحف التى يصدرها لبنانيون .. حتى لو قدمت له واقعنا مغشوشا ..

وقال المحرر الفنى فى استسلام :

ــ مضبوط يا أفندم .. لك حق فيما قلته .. وسأحاول أن أحصل على رضاك عنى ..

* * *

وخرج المحرر رفعت فوزى من الاجتماع متجها فورا إلى بيت الفنانة هنية مهنى .. إنه يعرفها منذ ظهرت كفنانة .. ويعتبر نفسه أقرب الصحفيين إليها .. وهو معجب فعلا بفنها ويضع نفسه دائما فى خدمة هذا الفن .. وقد سبق أن نشر أخبارا كثيرة وتعليقات طويلة عن الحفل الذى قدمته على شاشة التليفزيون .. ولكن لم يخطر على باله أن يقدم للقراء خلال هذه الأخبار والتعليقات أى كلمة عن الثوب الذى ظهرت به .. إنه يعتبر كل ما فيها وكل ما تقدمه هو الفن سواء ظهرت أمام الجمهور وهى فى ثوب من الحرير أو فى « زكيبة من الخيش » ... ولكن رئيس التحرير الجديد يعتبر أن قوة تأثير الفن مرتبطة بقوة تأثير المظهر .. وأن قيمة الثوب توازى قيمة اللحن أو قيمة الأداء .. وربما كان رئيس التحرير على حق ..

واستقبلته الفنانة هنية مهنى مهللة بالترحيب به كعادتها .. وصاحت من خلال ابتسامتها الحلوة :

ــ ربنا بيحبك .. فقد أوصيت الطباخ منذ لحظات أن يقدم طعام الغداء « كفتة وكباب » .. وأنا أعلم أنك تذوب فى الكفتة والكباب ...

ودارت أحاديث ضاحكة إلى أن قال رفعت فوزى وهما على مائدة الغداء يحشو فمه بالكفتة والكباب :

— هل تعلمين أن الثوب الذى ظهرت به فى التليفزيون أثار ضجة إعجاب ودهشة خصوصا بين النساء ... ترى من أين اشتريت هذا الثوب ومن اختار لك هذا « الموديل » وحاكه وطرزه لك ..

وقالت هنية متباهية بنفسها :

— أنت تعلم أنى كنت فى باريس ورأيت هذا الثوب بين معروضات بيير كاردان فجننت به .. وكل النساء تجن بكل ما يعرضه بيير كاردان ، ولكن هذا الثوب رفع جنونى إلى الحد الأقصى فتسمرت أمامه ولم أخرج من المحل إلا وهو بين يدى ..

وقال رفعت وهو يتعمد أن لا يبدو عليه الاهتمام كأنه يتقصى خبرا لن ينشر :

— لا شك أنه ثوب غال .. كم دفعت ؟

— بينى وبينك .. لقد كلفنى هذا الثوب ألف وخمسمائة دولار أى تسعة آلاف فرنك فرنسى تقريبا .. وقد كنت مستعدة أن أدفع عمرى كله ثمنا له .. أنت تعلم أنى أضعف إلى حد الانهيار كلما صادفت ثوبا يبهرنى ..

وتوالت أسئلة رفعت عن الثوب وهنية تنطلق بإجابتها فرحة كأنها تتحدث عن عزيز تفخر به .. والحديث لا يشمل أى لهجة أو طابع صحفى .. وكأنه مجرد حديث للتسلية بالكلام ... إلى أن قالت هنية :

— لقد نسيت أن أقدم لك ما جئتك به من باريس ... إنى لا أنساك حتى لو كنت فى القطب الشمالى .. وهرعت إلى داخل الشقة ثم عادت

تحمل إليه مجموعة من أربطة العنق وكوفية من الحرير وقماش بدلة .. وتقبل رفعت الهدية بفرحة عادية وكلمات ضاحكة فقد تعود على تلقى مثل هذه الهدايا ... وكان الغداء قد انتهى فاستأذن فى الانصراف دون أن ينسى حمل الهدية معه وأسرع إلى مكتبه فى مجلة « اليقظة » حتى يكتب كل ما سمعه عن الثوب قبل أن تضيع بعض التفاصيل من ذاكرته ...

* * *

وجلست الفنانة هنية بعد أن خرج المحرر الفنى وهى تبتسم سعيدة مع ذكرياتها التى أثارها حديثها عن هذا الثوب ... ولكنها فجأة تجهمت وعلت التجاعيد جبينها وضاقت عيناها وهى تسأل نفسها : ... لماذا كان رفعت يسألها كل هذه الأسئلة عن الثوب الذى ظهرت به ... لعله سينشر فى الصحيفة كل ما أجابت به وأطلعته عليه .. وسيعلن أن ثمن هذا الثوب وصل إلى ألف وخمسمائة دولار ... وسيكون التساؤل الطبيعى الذى يخطر على بال أى قارئ هو : ... من أين جاءت بهذه الآلاف من الدولارات ... وقد يسألها الصحفيون بعد ذلك عن سيارتها المرسيدس ... من أين جاءت بها وكم دفعت ثمنا لها ... ثم قد يعلمون أنها أصبحت تملك « فيلا » على شاطئ الريفيرا بفرنسا ... وشقة فى لندن ... وقد اشترت أخيرا قطعة أرض فى شارع الهرم .. وقد يسألونها عن كل ذلك وأكثر ... والسؤال الدائم هو : .. كيف أصبحت تملك ... ومن أين جاءت بالثمن .. هل الفن وحده يمكن أن يوفر للفنان كل هذا الثراء والرخاء حتى يصل إلى مستوى أصحاب الملايين .. مهما بلغت قيمة نجاحه ...

إنها تعلم ما يمكن أن يطرأ على فكر القارئ وهو يقرأ عنها فى الصحف

مثل هذه الأخبار سيتصورون أنها تعيش فى كنف عشاق من الرجال يسخون عليها كل هذا السخاء ... ويحددون نوعا واحدا من الرجال .. وهم رجال دول البترول .. وعلت شفتيها ابتسامة ساخرة .. حتى لو كان هذا صحيحا فلن يمسها إذاعته .. إنها لا تعيش إلا حياة شرعية ... ولم يصل إليها رجل إلا بحق الشرع ..

ومرت عليها سحابة من ذكرياتها .. لقد بدأت حياتها برجل أحبته ... ورغم أنه كان متزوجا إلا أنها عاشت معه وأعطته كل ما يمكن أن تعطيه امرأة لرجل على وعد بأن يتزوجها .. عاشت معه خمس سنوات طوال إلى أن تأكدت من أنه يخدعها ولن يتزوجها... فهجرته وابتعدت عنه.. وهى واثقة أنها امرأة قادرة على جذب أى رجل ... وكلما ارتفعت كفنانة وازدادت شهرتها طمع فيها رجال أكثر .. ويريدونها كلها .. ولا يكفيهم منها تقديرهم لفنها ... وكانت قد أصبحت كافرة بالحب ... لا يمكن أن تعطى نفسها باسم الحب .. ولا يمكن أن تلمسها يد إلا إذا تم الزواج مقدما .. حتى تكون لمسة شرعية .. حتى لو كانت لمسة لا تدوم إلا ليلة واحدة .. فيتم الزواج الشرعى فى المساء ويتم الطلاق فى الصباح ... وإن كانت إحدى الزيجات قد امتدت شهورا ... وزيجة أخرى استمرت سنوات .. وكانت كلها زيجات تبقى سرا ولا تعلن على الناس ولا يشهدها ويوقع العقد كشاهد إلا أخوها وأى واحد يطمئن إليه الزوج .. ويتم كل شىء تحت رعاية أمها ... وقد تزوجت حتى اليوم ثلاث زيجات .. وصحيح أن الزوج كان دائما من عرب دول البترول ... ولكن ما العجيب فى هذا ... إنهم يدفعون أكثر ... وكانت تقبض الثمن مقدما وبعد اطمئنانها إلى أنها ستأخذ أكثر .. وإن كانت فى إحدى هذه الزيجات قد ندمت بعد الطلاق

لأنها اكتشفت أنها كانت تستطيع أن تأخذ أكثر من الأكثر ..

وهى الآن قد ضاقت بهذه الزيجات .. زيجات اللمس .. ووصلت إلى الاكتفاء بما تملكه وما بين يديها وتحت أمرها ... إنه يكفى ليوفر لها منتهى الرخاء إلى أبد الحياة .. وأصبحت تحس بحاجتها إلى الحب حتى بلا زواج ... وإن كانت لم تجده بعد ... ولكنها أيضا لا تريد أن يعرف الناس عنها تاريخها الذى حقق لها كل هذا الثراء ... لا تريد أن يعرف الناس عنها إلا ما يخص فنها ... أن ليس لها قيمة بينهم إلا أنها فنانة ... وحتى لو ظهرت بينهم بمثل هذا الثوب الغالى ... فليعتبروه هدية ... إن كل كبار الفنانين يقبلون الهدايا ... إنها هدايا للفن ... وقد كانت أم كلثوم تتلقى هدايا تساوى الملايين وكانت تبدو على المسرح أمام جمهورها وعلى صدرها حلية من الماس يذهل بريقها العيون ... وتعلق فى أذنيها قرطا تكاد أبهته تبهر الناس .. وقد يكون كل ما تظهر به هدايا لم تمس أم كلثوم بكلمة جارحة تؤثر فى احترامها كإنسانة بجانب احترامها كفنانة ...

وابتسمت هنية ابتسامة مرة ... إنها تعلم أن فنها لم يصل بها إلى قيمة أم كلثوم .. إن فنها ليس قادرا على حمايتها من كلام الناس واتهاماتهم ...

ورفعت سماعة التليفون فى حركة عصبية واتصلت بالمحرر الفنى رفعت فوزى وقالت له بعد أن التقطت أنفاسها ليبدو صوتها ضاحكا كما تعودت فى كل أحاديثها معه :

— إياك أن تنشر فى المجلة أى شىء مما قلته لك عن هذا الثوب الذى ظهرت به ..

وقال رفعت فورا وفى لهجة سريعة كأنه مشغول بما بين يديه :

— بصراحة .. إنى شخصيا لا أهتم بموضوع هذا الثوب ، ولكنه

موضوع فرضه على مجلس التحرير .. ويجب أن أقدمه لرئيس التحرير حتى لا يخرب بيتى ..

وقالت وهى لا تزال تردد ضحكاتها المفتعلة :

— طبعا ستكتفى بنشر إعجابك وإعجاب الجمهور بثوبى ..

وقال رفعت ولا تزال كلماته متسرعة كأنه يريد أن ينهى الحديث :

— بصراحة .. فإنى سأقدم لرئيس التحرير كل التفاصيل التى سمعتها منك ..

وقالت وقد عجزت عن ترديد ضحكتها وأصبحت فى رجاء :

— ولكنى لا أريد نشر هذه التفاصيل ..

وقال رفعت فى زهق :

— اطلبى هذا من رئيس التحرير ..

وأعطاها رقم تليفون رئيس التخرير الخاص بعد أن طلبته منه وأنهى الحديث بلا كلمة تحية ..

وقضت هنية ساعات طويلة وهى مترددة وتعد كل كلمة يمكن أن تقولها لرئيس التحرير وتقنعه بها .. إلى أن تجرأت وطلبته فى التليفون .. وقالت بصوت جمعت فيه كل قدرتها على تمثيل أدوار الإغراء :

— أنا هنية مهنى ..

وقاطعها الأستاذ محمود عوض الله مهللا :

— أهلا .. أهلا .. هذا شرف كبير أن أسمع صوتك .. وأحب أن أقول لك إنك الفنانة التى تطمئننى على مستقبل الفن كله .. وتمنحنى الثقة فى الجيل الجديد من الفنانين ..

وقالت وصوتها يرن برنين الإغراء :

— أنت أستاذى وأستاذ كل الفنانين .. وأمى تحدثنى كثيرا عن أمجادك فى النهوض بالفن كله .. وأرجو أن أحتفظ برضائك عنى .. وإنى أطمع فى أن ألتقى بسيادتك حتى أتزود بنصائحك الفنية لى .. فإما أن تسمح لى بأن أزورك أو تقبل دعوتى لأتشرف وأفرح بزيارتك ..

وقال الأستاذ محمود عوض الله وهو لا يزال يهلل :

— تفضلى بزيارتى فى أى وقت .. إن بابى مفتوح دائما للفن الراقى ..

وقالت ورنين الإغراء أعلى :

— سأتشرف بزيارتك غدا .. وبالمناسبة لقد اتصل بى الأستاذ المحرر الفنى رفعت فوزى .. واستطاع أن يستدرجنى إلى حديث طويل عن الثوب الذى ظهرت به .. وكنت أتحدث إليه كصديق دون أن أقصد أن ينشر حديثى .. فأرجو ألا ينشر هذا الحديث .. إنه بعيد عن الفن ..

وقال الأستاذ محمود عوض الله وقد كف عن التهليل وأصبح جادا :

— إن موضوع الثوب أمامى .. وهو واف يغطى كل ما يهم القراء .. وأحب أن أقول لك إن الفنان لا يعتبر مجرد شخصية فنية .. إنه شخصية عامة .. تمثل الواقع الذى يعايشه الجمهور .. لذلك لا أستطيع أن أكتفى بنشر أخبارك الفنية بل يجب أن أمد القارئ بكل ما فى حياتك العامة ..

وقالت هنية فى رجاء كأنها تتوسل :

— يكفى أن ينشر رأى الصحفى ورأى الجمهور فى هذا الثوب الذى ظهرت به ..

وقال الأستاذ بحدة :

— إنك لا تعتبرين مجرد قيادة فنية .. إنك أيضا قيادة اجتماعية .. أنت مثل أعلى للجمهور الذى يريد أن يعرف كيف استطاع مثله الأعلى أن

يحصل على هذا الثوب ... لأن كل امرأة تريد أن يكون لها مثله .. وليس كل ما سننشره ما يمس احترامك .. إنه مجرد حديث عن ثوب أثار إعجاب الجمهور ..

وقالت هنية متوسلة كأنها وصلت إلى أدنى مطالبها :

ـــ أرجو عدم نشر الثمن الذى دفعته ..

وصاح الأستاذ :

ـــ لم لا .. يجب أن يعلم الجمهور بهذا الثمن .. هذا من حقه .. ونحن لم نسألك من أين أتيت بهذه الدولارات .. ليس من حقنا أن نحاسب الفنان على مصادر دخله .. هذه شئون خاصة لا تدخل فى تقديم الشخصيات العامة ..

وقالت وكأنها تكاد تبكى :

ـــ أرجو .. من أجل خاطرى ..

وصاح الأستاذ محمود عوض الله :

ـــ آسف .. لا أقبل رجاء فى أن أحرم القارئ من أن يعيش الواقع .. وفى انتظار تفضلك بزيارتى ..

وقالت هنية وشفتاها ترتعشان من الغيظ :

ـــ آسفة يا أستاذ على إزعاجك .. والأمر أمرك .. وأعادت سماعة التليفون وكأنها تلقيها فى وجهه ..

* * *

ومرت أيام ولم يكن خبر الثوب الغالى قد نشر بعد فى مجلة اليقظة .. ودق التليفون فى مكتب الأستاذ محمود عوض الله وكان المتحدث هو المسئول الكبير السيد محرم المرجوشى الذى كان له الفضل فى إعادته لرئاسة

تحرير المجلة ..

وأفاض السيد المرجوشى فى السؤال عن أحوال المجلة والتجديدات التى يعدها الأستاذ عوض الله .. كما أخذ يمده بأخبار جديدة معتقدا أن المجلة ستثير بها ضجة سياسية .. وكان يتحدث بلهجة تنبض بالاحترام الشديد والثقة الكاملة فى الأستاذ عوض الله .. إلى أن قال له كمجرد استمرار فى الحديث :

ــ سمعت أن المجلة ستنشر موضوعا عن الثوب الذى ظهرت به أخيرا الفنانة هنية مهنى ..

وقال الأستاذ عوض الله فى بساطة :

ــ هذا صحيح ..

وعاجله السيد المرجوشى قائلا :

ــ لا داعى لنشر هذا الموضوع ..

وقال الأستاذ عوض الله كأنه يلقى درسا :

ــ إن هذا الثوب أثار اهتمام الجمهور .. ومن واجب الصحافة أن تغطى كل اهتمامات الجمهور .. حتى لو اهتم بمجرد ثوب ظهر أمامه ..

وقال السيد المرجوشى وقد بدأ يفقد هدوءه :

ــ إن كل الفنانات يظهرن بثياب تثير اهتمام الجمهور .. ولم تتعود الصحف أن تنشر موضوعات عن أى ثوب .. وتفيض فى التفاصيل .. من أين هذا الثوب .. وكم يبلغ ثمنه .. هذا من الشئون الخاصة التى لا يصح نشرها احتراما للفن والفنانين ..

وقال الأستاذ عوض الله بصراحته الجريئة كأنه يلوم المسئول الكبير :

ــ إنى لا أسمح بنشر الأخبار الخاصة .. وكل ما يراه الجمهور يفقد

صفة الخصوصية ويصبح موضوعا عاما .. وقد وصلني أمس خبر بأن سيادتك التقيت بالفنانة هنية مهنى .. ولم يتم هذا اللقاء فى مكتبك الرسمى ولم يركما الجمهور .. ولذلك فإنى لن أنشر هذا الخبر لأنى أعتبره خبرا خاصا ليس من حق الصحافة أن تذيعه ..

وصاح السيد المرجوشى كأنه فوجئ مفاجأة صدمته :

ـ سواء كان لقاء فى المكتب أو خارج المكتب فإنى لا أعرض نفسى لأى لقاء إلا إذا كان لقاء شرعيا ..

وبهت الأستاذ عوض الله فترة وهو يسائل نفسه : هل استطاعت هنية أن تتزوج المرجوشى أيضا .. ثم قال :

ـ سواء كان لقاء شرعيا أو غير شرعى فلن أنشره لأنه يعتبر من الشئون الخاصة التى لا تهم الجماهير .. ولكنى سأنشر موضوع الثوب الذى ظهرت به هنية مهنى أمام الجماهير ..

وصاح المرجوشى وقد فقد كل تحكمه فى أعصابه :

ـ لن تنشره .. واعتبر أن هذا أمر ..

وصاح الأستاذ عوض الله هو الآخر :

ـ إنى اعتبر أن هذا تدخل فى شئون الصحافة ليس من طبيعتى الاستسلام له .. وإذا لم ينشر موضوع ثوب هنية مهنى فسأقدم استقالتى ..

وقال السيد المرجوشى قبل أن يقذف بسماعة التليفون من يده :

ـ إنك لست فى حاجة إلى تقديم استقالتك .. فأنت على المعاش ..

* * *

وعاد الأستاذ محمود عوض الله يعيش الوسط الصحفى ساخطا متباعدا إلى حد الانعزال .. لا يربطه به إلا قبض معاشه كل أول شهر ..

لم تنس أنها امرأة

سبق فى عام ١٩٧٨ أن كتبت قصة بعنوان « ونسيت أنى امرأة » .. وهذه قصة أخرى حول شخصية لم تنس أنها امرأة .. وكلتا القصتين مجرد خيال ولكنه خيال من وحى الواقع .. وكاتب القصة قد يكون كالرسام الذى يعيش الواقع ولكنه لا يأخذ منه الأشكال ولكنه يأخذ الألوان ..

إحسان

(١)

كان يمكن أن يقال عن فريدة إنها لا تكتفى أبدا بما فى يديها .. ولكنها تبحث دائما عما ليس فى يديها .. أى أنها لا تعيش ما هى فيه ولكنها تعيش ما ليست فيه .. حتى النجاح .. إن أى نجاح تصل إليه يضيع إحساسها به وتبدأ فى البحث عن نجاح آخر ..

وقد كانت تستطيع دائما أن تصل إلى ما تجرى وراءه .. فهى فى منتهى الذكاء .. وذكاؤها يقوم على استكمال ما يفرضه الواقع المعترف به .. فهى تعلم مثلا أن العمل الذى تسعى إليه يحتاج إلى دراسة .. فتدرسه فعلا .. وكانت تتفوق فى كل ما تدرسه .. وتحقق لها الدراسة ما تريده من نجاح .. وذلك بجانب حيويتها الدافقة التى لا تكل أبدا .. ولا تستسلم أبدا لليأس إذا صادفتها أى عقبة ..

وهى فى نفس الوقت لا تنسى أنها امرأة .. وتؤمن بأن الأنوثة تفتح طريق الوصول إلى التأثير على الرجل الذى يتحكم فى تحقيق الأهداف .. وهى ليست فى منتهى الجمال .. ولكنها فى منتهى الجاذبية .. وذكاؤها يصل بها إلى قمة هذه الجاذبية .. جاذبية نظرات عينيها .. وجاذبية ابتسامتها .. وجاذبية كلماتها .. وجاذبية تحرك كل عضو من أعضاء جسدها .. وقد تعودت أن تتحكم فى هذه الجاذبية .. كل ما تطلقه منها تتعمده .. نظرتها متعمدة .. وابتسامتها متعمدة .. وكلماتها وتحركاتها متعمدة .. وقد تسرف فى إطلاق جاذبيتها أو تبخل بها على قدر حاجتها إلى استغلالها لتحقيق أهدافها ..

وقد كانت لا تزال تلميذة فى المدرسة الثانوية .. وقد وصلت فيها إلى القمة بين التلميذات .. إنها متفوقة فى كل نواحى النشاط المدرسى .. والامتحانات لا تأخذ منها إلا أياما لمذاكرة الدروس حتى تنجح فى كل امتحان .. بجانب أنها لا تنسى وهى لا تزال فى صباها أنها أنثى .. فتتعمد استغلال جاذبية أنوثتها فى اكتساب المدرسين المسئولين عن تحقيق نجاحها فى الامتحانات .. كلهم أصدقاؤها .. وبينها وبين الكثيرين منهم محادثات تليفونية .. ودائما تنجح .. وتنجح بتفوق .. ولكنها بدأت تمل هذا النجاح ولا تشعر به فى إحساسها سوى بفرحة تمر بها ولا تستغرق دقائق بعد ظهور نتيجة الامتحان .. إن النجاح فى المدرسة أصبح كحلية تحتفظ بها فى جيبها ولا تتعمد التباهى بها .. وهى تريد حلية أخرى جديدة .. تملأ إحساسها بجدتها وتدفعها إلى التباهى بها ..

ووجدت نفسها تقرر أن تكون كاتبة قصة .. وأن تعرف وتشتهر ككاتبة قصة .. ربما لأنها كانت وهى فى هذا العمر تهوى قراءة

القصص .. فلماذا لا تكتبها وتشتهر بها كما اشتهرت عائشة التيمورية أو الكاتبة مى وكثيرات من كاتبات القصة هذه الأيام .. أو تعرف كما عرفت غادة السمان أو حنان الشيخ .. أو تصل إلى المستوى العالمى وتنجح كما نجحت فرنسوا ساجان وسيمون دى بوفوار وفرضا نجاحهما على العالم كله .. وقد هداها ذكاؤها الواقعى إلى أنها لا تستطيع أن تكتب قصة لها قيمتها إلا إذا استكملت دراسة فن كتابة القصة .. كيف تدرس هذا الفن .. لقد اعتمدت على الإسراف فى قراءة كل أنواع القصص .. القصص التى تكتب باللغة العربية وباللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية .. وقضت سنوات وهى تقرأ إلى أن أحست بأنها استوعبت هذا الفن فبدأت تكتب .. ولم تطمئن إلى أول ما كتبته فأعادت الكتابة مرات إلى أن أحست بالاطمئنان إلى أن ما كتبته سيحقق نجاحها ككاتبة قصة .. ولكن .. لا يزال هناك العنصر الآخر الذى تستطيع أن تضمن به النجاح .. وهو عنصر أنوثتها .. فهى لا تنسى أبدا أنها امرأة ..

وحددت موعدا للقاء كاتب القصة الكبير المشهور الأستاذ عبد الحليم رفعت فى مكتبه بالجريدة التى ينشر قصصه على صفحاتها .. وقد ذهبت إليه بعد أن كست نفسها بكل جاذبيتها .. وتأكدت منذ اللحظات الأولى أنه بدأ يستسلم لنظرات عينيها .. وإغراء ابتسامتها .. ورنة صوتها .. واختيارها لكلماتها .. وقد كانت تعلم أن كبار الكتاب لا يرحبون بالكتاب الجدد الصغار كأنهم يخشون منهم على مستقبلهم ، ولكن الأستاذ عبد الحليم رحب بها وتعلق بها إلى حد أن أصبح يتكلم أكثر منها ويمد فى الحديث كلما خشى أن ينتهى .. وعيناه تبتلعانها قطعة بعد قطعة .. وكانت كل ما طلبته منه وهى تتعمد الحياء كأنها تثقل عليه هو أن

يقرأ القصة التى كتبتها ويقول رأيه فى تقديرها .. ووعدها الأستاذ بقراءة القصة وحدد معها موعدا عاجلا للقاء تال ليقول لها رأيه .. وقام يصحبها إلى باب مكتبه وهى خارجة ورفع يده يزحف بها على شعرها الأسود الناعم كأنه يتزود منها برشفة تطفئ عطشه ..

وقرأ الأستاذ عبد الحليم القصة وصحح فيها وأضاف إليها .. وكان مندفعا لاستكمال قيمتها كأنها ستنشر باسمه .. ثم سعى بنفسه إلى أن استطاع أن يقنع المسئولين عن الجريدة بنشرها .. ولأول مرة تفرح فريدة الفرحة الكبرى بنشر اسمها فى الصحف .. وكتبت القصة الثانية .. والثالثة .. والرابعة .. و .. و .. لقد أصبحت مشهورة ككاتبة قصة .. وبجانبها دائما الأستاذ عبد الحليم وقد تطور استغلاله لجاذبيتها لتحقيق لحظات متعة الرجل بالمرأة .. وهى لا تعطيه هذه المتعة استسلاما لجاذبيته لها .. أو استسلاما لمتعة .. إنها تعطيه بقدر حاجتها إليه لتحقق مزيدا من النجاح ككاتبة قصة ..

(٢)

وكانت فريدة قد انتهت من دراستها الثانوية والتحقت بالجامعة .. وقد استقبلت فى الجامعة ككاتبة قصة معروفة لها اسم ينشر فى الصحف .. وبعض الأساتذة والطلبة يرحبون بها وتجمعهم اللهفة حولها وبعضهم تدفعهم الغيرة إلى تعمد الابتعاد عنها فى مظهر من مظاهر ازدراء قيمتها الشخصية .. ولكن هى نفسها بدأت تفقد متعة الإحساس بنجاحها ككاتبة قصة .. أصبح هذا النجاح مجرد حلية أخرى تحتفظ بها فى جيبها

دون أن تتعمد التباهي بها .. ووجدت نفسها تبحث عن حلية أخرى جديدة .. أى عن نجاح آخر يدفعها إلى متعة التباهي به .. ووجدت نفسها تقرر أن تكون صحفية ناجحة بدلا من مجرد كاتبة قصة .. إن مجال الصحافة أوسع وأزهى بكثير من مجال كتابة القصص .. وربما كانت مواظبتها على التردد على مكاتب الصحيفة التى من بينها مكتب الأستاذ عبد الحليم رفعت هو الذى دفعها إلى هذا التعلق بالصحافة وبالمجتمع الصحفى .. وكالعادة .. بدأت بدراسة نظرية واسعة للعمل الصحفى ثم بدأت من تلقاء نفسها تعد تحقيقا صحفيا .. وكان تحقيقا عن واقع العلاقات بين الطلبة والأساتذة داخل الجامعة .. وبذلت مجهودا مضنيا فى إعداد هذا التحقيق حتى اطمأنت إلى قيمته .. ولم يبق إلا العنصر الأخير وهو استغلال أنوثتها حتى تحقق النجاح ..

وذهبت إلى لقاء الأستاذ محمود منصور سكرتير التحرير .. وقد زودت نفسها بكل ما تملك من جاذبية .. وقد رحب الأستاذ محمود بالتحقيق الصحفى الذى قدمته له بمجرد أن ألقى عينيه على بعض السطور .. ولكنه رحب بها هى شخصيا أكثر .. وأفاض معها فى حديث لا ينتهى عن عالم الصحافة الذى سيفتحه أمامها .. ويده تضغط على يدها وهو يودعها كأنه يبصم عليها بإمضائه ليثبت أنها له ..

ونشر التحقيق الصحفى يحمل اسمها .. وفرحت بانتصار جديد حققته .. وأصبحت مرتبطة بسكرتير التحرير الأستاذ محمود منصور .. وكانت من الذكاء بحيث استطاعت أن تتوقف عن كتابة القصة دون أن تفقد صداقة الكاتب الكبير عبد الحليم رفعت .. وإن كانت قد أصبحت صداقة فى إطار آخر لا يدفعها إلى العطاء .. ولكن الأستاذ سكرتير

التحرير يعتبر نوعا آخر من الرجال .. إنه يسعى مباشرة إلى الوصول إلى كل شيء .. حتى لو كان الوصول يفرض أن يتزوجها .. ولكن كيف تتزوج وهى لا تزال فى السنة الثانية من سنوات دراستها الجامعية .. ولا تزال فى التاسعة عشرة من عمرها .. لينتظر على الأقل حتى تتخرج من الجامعة .. ولكن محمود يلح .. ويهدد .. إن تحقيقاتها الصحفية لن تستمر فى النشر إلا إذا قبلت الزواج .. وهى قد تعلقت بالصحافة حتى لا تستطيع أن تستغنى عنها .. والعالم الصحفى حقق لها قوة الشخصية ومتعة الزهو بنفسها وحق الدخول من أى باب من أبواب المجتمع .. وقبلت الزواج لأنها تعلم أنه يستطيع أن يحرمها فعلا من وجودها الصحفى .. فهو شخصية خطيرة .. ولكنها اشترطت أن تستمر فى دراستها الجامعية وفى إنتاجها الصحفى .. وتساهلت بعد ذلك فى كل ما يمكن أن يكلفه زواجها .. ولم تهتم بما اكتشفته عائلتها من أصله وفصله .. ولا بما يستطيع أن يقدمه من مهر وشبكة ، ولا ما يستطيع أن يعده لها كبيت يجمعهما ..

وكان أول ما تتعمد الحرص عليه بعد أن وافقت على الزواج هو ألا تحمل وتلد وتصبح أما .. وفى ليلة الزفاف لم تنس أن تبتلع حبوب منع الحمل .. إنها لا تريد أن تشغلها مسئولية الأم عن مسئولية مزيد من النجاح .. وقد أصبحت وهى زوجة سكرتير التحرير أقوى فى شخصيتها داخل الجريدة .. أصبحت تستطيع أن تتدخل فى كل نواحى التحرير .. وكل المحررين والعاملين يهابونها ويستجيبون لإرادتها كأنها هى كزوجها سكرتيرة التحرير .. حتى رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة أصبحا يحسبان حسابها ويتعمدان إرضاءها مراعاة لحاجتهما إلى زوجها ..

وبذلك أصبحت تنشر كل ما تكتبه .. وتبرز اسمها بالحروف الكبيرة بجانب نشر صورتها محلاة بابتسامتها الجذابة ..

أصبحت صحفية معروفة مشهورة وهى لا تزال طالبة فى الجامعة ..

(٣)

ومرت الأيام دون أى تغيير يمس شخصيتها بعد الزواج أو يخفف من طبيعتها فى البحث عن النجاح .. إن كل ما تحس أنه تغير بعد الزواج هو أنها انتقلت من بيت إلى بيت .. ومن رجل هو أبوها إلى رجل آخر هو زوجها .. وقد انعكس نجاحها كصحفية على شخصيتها داخل الجامعة بين زملائها وأساتذتها .. أصبحت شخصية أقوى .. ولكنها لم تهمل عادتها فى تحقيق النجاح فى الامتحانات .. إنها تدرس كل المواد دراسة كاملة جادة ثم لا تهمل الاعتماد على العنصر الآخر فلا تنسى أنها امرأة يمكن أن تستغل أنوثتها فى التأكد من النجاح ..

إلى أن وصلت فى الجامعة إلى السنة النهائية .. وقد بدأت تضيق بشخصيتها كصحفية ناجحة .. أصبحت تحس كأن هذه الشخصية هى مجرد حلية تمتلكها وقد زهقت من التباهى بها .. وبدأت تنقلها إلى داخل جيبها .. إنها تملكها ولكنها تحتفظ بها فى خزانة المجوهرات .. وبدأت تسأل نفسها عما يمكن أن تكون عليه بعد أن تنتهى من دراستها الجامعية وتحصل على الليسانس .. هل تتفرغ بعد ذلك لعملها الصحفى .. أى تتفرغ لزوجها الذى يربطها بالصحافة .. ولكن لماذا لا تستمر فى الجامعة .. إنها تستطيع أن تصل إلى معيدة على الطلبة إذا استطاعت أن

تكون من أوائل الخريجين .. وتستطيع وهى معيدة أن تحصل على شهادة الماجستير .. ثم على شهادة الدكتوراه .. وتصل إلى أن تكون الدكتورة فريدة .. ولعل السنوات الطويلة التى قضتها فى الجامعة جعلتها لا تستطيع أن تستغنى عن المجتمع الجامعى .. ثم ما أحلى أن تتباهى أمام كل الناس بأنها تتحلى بلقب الدكتورة .. الدكتورة فريدة .. إن المجتمع يضع كل من يحمل هذه الحلية فى أعلى درجات القمة ..

وبدأت فعلا تبذل مجهودا أكبر فى دراستها الجامعية لتحصل على الليسانس بدرجة ممتازة ترفعها إلى أن تعين معيدة .. وبقى العثور على الجانب الآخر الذى يؤكد لها الوصول إلى الهدف بالاعتماد على قوة اجتذاب أنوثتها .. واختارت الدكتور إبراهيم بسيونى .. إنه ليس أستاذا يدرس لها مباشرة .. ولكنه معروف بأنه صاحب نفوذ كبير فى الإدارة الجامعية .. رغم أنه ليس عجوزا .. وإن كان قد تعدى الأربعين .. وهو متزوج وإن كان لم ينجب .. وقد لاحظت فى المرات القليلة التى وقفت خلالها أمامه أن عينيه تبرقان وهما يضمان وجهها .. إنها تحس بسرعة بهذا البريق كلما لمحته فى عينى أى رجل .. وتستطيع أن تفسره وتحدد مداه .. حتى الأزواج يرتكبون الخيانة الزوجية ببريق العيون .. وهى لم تنس بريق عينى الدكتور إبراهيم بسيونى ..

ولذلك ذهبت إليه فى مكتبه بعد أن تزودت بكل عوامل جاذبيتها .. نظرات عينيها .. وابتسامتها .. واختيار كلماتها .. ورنة صوتها .. واستقبلها بريق عينيه يكاد يعصرها .. وهى تتلوى فى هذا البريق برفق حتى لا تفقد احترامها .. وقد ادعت أنها جاءت إليه لأن كثيرا من الكتب الدراسية تنقصها ولا تجدها فى السوق ، ومسئولية إدارة الجامعة تفرض

عليها أن توفر الكتب للطلبة .. ووعدها الدكتور إبراهيم بأن يمدها بالكتب .. ثم لم يعد يريد أن يكف عن الحديث وينهى اللقاء .. إنه يحدثها عن كل شئون الجامعة حتى ما يمكن أن يعتبر أسرارا تظل بعيدة عن الطلبة .. ثم يحدثها عن نفسه ويسألها عن نفسها .. ثم وقف يودعها وبريق عينيه مركز فوق شفتيها كأنه يتمنى أمنية غالية ..

وتوالت اللقاءات بينها وبين الدكتور إبراهيم .. وأصبح يعتبر نفسه مسئولا عن كل حياتها الجامعية .. ووصل إلى أن أصبح يراجع دروسها معها .. إنها ستنال الليسانس .. وستعين أستاذة معيدة على الطلبة .. ولكن الدكتور إبراهيم أصبح أكثر صراحة .. إنه يريدها .. ولكن من المستحيل أن تستسلم لما يريد .. ليس لأنه زوج ولكن لأنها زوجة .. والزوجة التى تستسلم لرجل آخر تفقد كل سيطرتها على هذا الآخر .. ولا تصبح فى واقع تقديره سوى زوجة خائنة .. وقد يسبقها بالابتعاد عنها حتى لا تخونه هو الآخر كما خانت زوجها .. ولكنها كانت بذكائها وهى ترفض الاستسلام له لا تتركه يصل إلى حد اليأس .. إلى أن جاءها يوما وأبلغها أنه ترك زوجته .. طلقها .. وقد طلق زوجته ليتزوجها هى .. وكانت قد تركته يقتنع بأنه يمكن أن يدفعها إلى الطلاق من زوجها هى الأخرى لو كان يستطيع أن يتزوجها ..

وقد وقعت فريدة فى حيرة مفاجئة .. لقد كانت تحادثه كمجرد عرض الحجج التى تحرمه منها وتحرمها منه .. ولكنه طلق زوجته فعلا .. ويريد أن يتزوجها هى فعلا .. لماذا لا تتزوجه .. إنه يقدم لها مجتمعا آخر غير المجتمع الصحفى الذى يقدمه لها زوجها سكرتير التحرير محمود منصور .. يقدم لها المجتمع الجامعى .. وهو مجتمع له روعته ومكانته

الرفيعة بين باقى المجتمعات .. مجتمع تستطيع أن تفخر به وتعلق على صدرها حلية جديدة غالية تتباهى بها .. ووجدت نفسها تبدأ فى التخطيط للحصول على الطلاق .. وقد واجهها كثير من العوائق والمتاعب .. ولكنها أصرت على تحقيق هذا الطلاق وهى اثقة أنها تستطيع دائما أن تحقق ما تريد .. ووصل إصرارها إلى حد أن هجرت المجتمع الصحفى كله .. ولم تعد تهتم بأن تعيش كصحفية .. إلى أن حصلت على الطلاق .. وبلغ بها ذكاؤها إلى أنها حتى بعد الطلاق ظلت محتفظة بعلاقة ود وصداقة مع الزوج الطليق .. سكرتير التحرير .. حتى تتجنب قدرته على التشهير بها ..

وكانت قد حصلت على الليسانس .. وكانت الأولى فى الترتيب بين الخريجين .. وعينت فورا معيدة جامعية .. وتزوجت الدكتور إبراهيم بسيونى صاحب النفوذ الجامعى الهائل .. وأصبحت هى بزوجها شخصية جامعية رئيسية كأنها هى التى أصبحت تملك القوة الإدارية داخل الجامعة .. وفى نفس الوقت بدأت تدرس لنيل شهادة الماجستير .. وبعدها ستنال شهادة الدكتوراه .. وتصبح الدكتورة فريدة .. إنها واثقة .. مطمئنة سعيدة سعادة النجاح .. ولا تزال مصرة على عدم الإنجاب حتى لا تشغلها مسئولية الأمومة عن مسئولية تحقيق آمالها .. ربما بعد أن تصبح دكتورة يمكن أن تفكر فى أن تكون أما ..

(٤)

وقد مر عامان وهى متفرغة للمجتمع الجامعى إلى أن بدأ يداهمها نوع من الزهق والملل .. إنه مجتمع محصور ضيق يتكون كله من مجموعة سراديب خفية تجمع كل أساتذة الجامعة .. إن حياة كل منهم سرداب بجانب سرداب .. والسراديب تتخلل حتى الشهادات والمناصب العلمية .. وهى قد وصلت إلى الكثير فى هذا المجتمع .. بل إن الدولة أصبحت تختارها وتضعها بين كبار الأساتذة الذين تجمعهم كلما خطر على بالها تكوين مجمع علمى يحقق مظاهر دراسية .. مجرد مظاهر لا تنتهى إلى أى واقع علمى .. وهى رغم كل هذه المظاهر تحس أنها تعيش مع زوجها فى سرداب خاص فى معركة مع باقى السراديب .. إن مجتمع أساتذة الجامعة يختلف عن مجتمع الطلبة الذى كانت تعيش فيه .. ليس فيه هذا الانطلاق الذى يعيشه الطلبة وهم يجرون وراء آمالهم ..

ولم تحس بعد زواجها من الدكتور إبراهيم بسيونى إلا بأنها انتقلت إلى بيت ثالث .. وإلى رجل ثالث بعد أبيها وزوجها الأول سكرتير التحرير .. وإن كان الدكتور إبراهيم بسيونى أضيق مجالا اجتماعيا من محمود منصور .. ويقضى كل لياليه فى دراسات بين الكتب ولا تجد ما يشغل وقتها معه إلا أن تمسك هى الأخرى بكتاب ..

وبدأت تشعر داخل هذا المجتمع بنوع من الاسترخاء يزحف عليها .. حتى إنها لم تنته بعد من إعداد رسالة الماجيستير رغم مرور عامين .. وكانت تستطيع أن تنتهى منها فى عام واحد لتبدأ الإعداد لرسالة

الدكتوراه .. ولكنها بدأت تحس كأنه يكفى أن يكون زوجها حاملا لهذه الشهادات .. ولم تعد تجد إلا هذا الاسترخاء .. ولكنها تكره أن تعيش مسترخية .. إن من طبيعتها أن تبحث دائما عن نجاح جديد .. حلية جديدة تتباهى بها .. وكانت تمر بها أيام تحاول أن تقاوم هذا الاسترخاء بأن تخرج من جيبها الحلى التى جمعتها وتحاول أن تتسلى بها .. أى تجلس وتكتب قصة أو تكتب تحقيقا صحفيا كما كانت تكتب أيام زمان .. وتستطيع أن تنشر ما تكتبه فى الصحف .. إنها لا تزال محتفظة بنجاحها القديم .. وذلك مع احتفاظها بنجاحها كأستاذة معيدة فى الجامعة .. ورغم ذلك فهى ليست سعيدة .. وليست فخورة بنفسها كما تعودت .. ولا تزال تعانى الاسترخاء ..

(٥)

إلى أن جمعتها الصدفة بلقاء السيدة فاتن حمامة لأول مرة فى دعوة أقامتها إحدى الصديقات .. وتعلقت عيناها مبحلقة فى فاتن وأفكارها تطير بها إلى بعيد .. لا شك أن فاتن حققت نجاحا أوسع بكثير من النجاح الذى حققته هى .. ووصلت بنفسها إلى شخصية لها قيمة شعبية كاملة حققت لها قوة هائلة توازى قوة زعيم من الزعماء .. كيف استطاعت فاتن أن تصل إلى أن تجمع فى يدها كل هذا المجد وكل هذه القوة .. لقد استطاعت أن تصل لأنها عاشت مجتمع الفن السينمائى ووصلت فيه إلى قمة النجاح .. إن الفن أقوى سيطرة على الجمهور من العلم .. والسينما أقوى فى فرض شخصية أبطالها من الجامعة أو من الصحافة أو من الإنتاج الأدبى الذى

مارسته بكتابة القصة .. فلماذا لا تحاول أن تكون نجمة سينمائية .. إنها تحاول تحقيق كل نجاح يخطر على بالها .. ثم إنها واثقة أنها يمكن أن تجيد فن التمثيل .. لقد كانت نجمة فريق التمثيل المسرحى أيام كانت فى المدرسة الثانوية . بل إنها تتصور أنها يمكن أن تصل إلى نفس مكانة نجومية فاتن حمامة .. بل تستطيع أن تحل محلها خصوصا بعد أن أصبحت فاتن مقلة فى تقديم أفلام السينما .. وأصبحت لا تستطيع أن تقوم بتمثيل شخصية النساء الصغيرات ..

وبعد هذا اللقاء وجدت نفسها كما هى طبيعتها تتفرغ لدراسة فن التمثيل السينمائى .. والإلمام بكل التفاصيل التى يمكن أن تصل بها إلى مستوى النجوم .. كانت تقرأ وتسمع كل ما يمكن أن يعينها على النجاح .. وأصبح من برنامجها اليومى أن تشاهد فيلما سينمائيا لتكتشف أسرار فن التمثيل .. ولم تعد تهتم بأى دراسة أخرى أو عمل آخر .. إلى أن اطمأنت إلى أنها تمكنت من هذا الفن ولم يعد ينقصها إلا عنصر استغلال أنوثتها للسيطرة على رجل يعينها على تحقيق آمالها ..

واختارت الأستاذ المنتج السينمائى وديع الأسيوطى .. ورغم أن الأستاذ وديع استقبلها بترحيب يلمع فى عينيه.. إلا أنه كان ترحيبا باردا كأنه تعود على استقبال مثل هذه الأشكال .. وهو يريدها فورا لتعطيه المتعة .. كأنه يريد الثمن مقدما .. ولكن مستحيل .. إنها زوجة .. وهى لا تزال مقتنعة بأن الزوجة التى تستسلم لرجل آخر تفقد سيطرتها على هذا الآخر .. وتصبح مجرد زوجة خائنة .. فكانت ترفض دون أن تفقده الأمل .. والأستاذ وديع يدهش لهذا الرفض فإنه يتعود عليه من امرأة تريد أن تكون نجمة سينمائية ..

وقد بدأ زوجها الدكتور إبراهيم بسيونى يكتشف أحلامها التى بدأت تسيطر عليها .. اكتشف أنها تسعى لتكون نجمة سينمائية وبدأ يثور ثورة عارمة .. لقد جمعهما الحب ووصل بهما إلى الزواج لأنها كانت تعيش معه المجتمع الجامعى وتحلم بأن تكون أستاذة جامعية لتصل إلى مستوى يجمعهما .. فإذا بدأت تتجه إلى مجتمع آخر فهى تتجه إلى التخلص من هذا الحب .. إنه لا يستطيع أن يبقى معها كزوج إلا إذا ظلت تعيش معه كأستاذة فى الجامعة .. وبدأت فريدة تقتنع بثورة زوجها .. إنها لا تستطيع أن تعيش فى عالم آخر غير عالمه وتبقى زوجة له .. ثم لو فرض وأصبحت نجمة سينمائية فكيف تستطيع أن تواجه طلبة الجامعة .. هل تقف أمامهم كأستاذة أم كنجمة سينمائية .. وهل يتلقون منها محاضرات كعلم أم كمجرد حوار فى مشهد سينمائى .. ولكنها مصرة على أن تنجح فى الوصول إلى أحلامها .. تريد حلية جديدة تتباهى بها .. حتى لو تركت زوجها وابتعدت عن المجتمع الجامعى كله ..

وفعلا .. تم الطلاق .. وقدمت استقالتها من وظيفتها الجامعية .. وإن كانت بذكائها قد أبقت على خيط رفيع يجمعها مع الدكتور إبراهيم بسيونى فى الذكريات الحلوة ..

وقد أصبحت حرة .. وليست زوجة .. إنها تستطيع الآن أن تعطى الأستاذ وديع الأسيوطى بعضا من الثمن الذى يطلبه مقدما .. ولكنها كانت تعطى وهى بخيلة متحفظة حتى تظل محتفظة بقيمة شخصيتها التى تريدها لنفسها .. قيمة المرأة الغالية الصعبة .. حتى ترفع نفسها فوق مستوى النساء الرخيصات داخل هذا المجتمع .. وبدأ الأستاذ وديع يرتفع بها إلى سماء النجوم .. والصحف والمجلات الفنية بدأت تتحدث عن

النجمة السينمائية الجديدة وتنشر صورها باستمرار .. إنها المرة الأولى التى ترى فريدة صورتها تنشر فى الصحف بهذه الكثرة .. وتركز على إبراز قوة جمال جاذبيتها .. وهى تتعمد فى كل صورة أن تبدو كأنها تمثل مشهدا يبهر المتفرجين .. وكان الأستاذ وديع يتفاخر بأنه استطاع أن يحصل على أستاذة جامعية ليجعل منها نجمة سينمائية .. إنها ليست امرأة وجدها فى الشارع .. إنها أستاذة جامعية .. والصحف كلها تكتب عن تاريخ حياتها المجيد .. فى الجامعة .. وفى الصحافة .. وفى عالم الأدب ككاتبة قصة .. وهى سعيدة .. فى منتهى السعادة .. ومن يدرى ربما استطاعت أن تترك تاريخ حياتها يدرس فى المدارس كتاريخ حياة كليوبترا أو شجرة الدر ..

وظهرت فى أول فيلم سينمائى .. ثم فى فيلم ثان .. وثالث .. وهى حريصة من خلال سيطرتها على المنتج وديع الأسيوطى أن تكون كل أفلامها قائمة على عرض موضوعات جادة محترمة .. وألا تعرض نفسها لأى مشهد إباحى .. ولا حتى مجرد تبادل قبلة مع رجل .. أو تكشف أمام الكاميرا عن صدرها أو عن فخذها .. وهى لا تحاول أن تبحث فى مستوى القيمة الفنية لهذه الأفلام التى تظهر فيها .. يكفى أنها تعرض .. ويكفى أنها تعيش واقع حياة النجوم ..

(٦)

ومر عامان .. ثلاثة .. أربعة .. وبدأت تحس بالإنهاك فى هذا المجتمع السينمائى الذى تعيش فيه .. إنه مجتمع لا ينام .. ويعيش كل الليل و كل النهار .. وبدأت تحس أنها نجمة على صفحات الصحف .. وعلى أوراق الإعلانات التى تغطى الشوارع .. وبين الأفراد القلائل الذين تعمل معهم .. ولكنها لا تعيش مع جمهور عريض مسئول عنها ومسئولة أمامه .. جمهور يستطيع أن يقودها أو تقوده .. إن جمهور السينما أصبح يمثل المستوى الثقافى الأدنى .. مستوى لا يحمل أى مسئولية ولا يحس بأى هدف .. إنه جمهور ربما يتعمد التردد على دور السينما هربا من جلسات تدخين الحشيش ..

وبدأت تضيق بالنجاح الذى تحمله فى يدها .. وبدأت الحلية التى تعلقها على صدرها وتتباهى بها تسقط وتختبئ فى جيبها مع باقى الحلى الأخرى التى سبق وتحلت بها .. وبدأ فكرها يلح عليها فى أن تبحث عن حلية جديدة .. ووجدت كل فكرها يتجه بها إلى التليفزيون .. لا شك أن التليفزيون أصبح مركز التجمعات الجماهيرية .. إنه فى كل بيت ويتولى قيادة كل العائلات .. وتستطيع من خلاله أن تصل إلى قيادة جماهيرية مباشرة ..

واستغلت مواهبها فى الوصول إلى ما تريد .. وبدأت تظهر على شاشة التليفزيون وتتباعد عن السينما حتى انقطعت عنها .. وقد اختارت أن تظهر فى موضوعات تليفزيونية علمية وثقافية وفنية جادة حتى لا تكون

مجرد شخصية مسئولة عن تسلية المشاهدين .. إنها تريد أن تتباهى بتاريخها الثقافى ..

ولكنها بدأت تعانى من تأكيد نجاحها فى التليفزيون .. إن المجتمع التليفزيونى يقوم على سراديب أضيق وأشد إظلاما من السراديب التى سبق أن عاشتها فى المجتمع الجامعى والسينمائى .. وربما كان عليها أن تتزوج من داخل هذا المجتمع حتى تستطيع أن تقاوم بزوجها ظلام هذه السراديب .. إنها المرة الأولى التى تتحمل هى مسئولية السعى إلى الزواج .. وقد اختارت الأستاذ حازم منتصر .. إنه فى زهو رجولته .. وهو تليفزيونى ناجح استطاع أن يفرض نجاحه على الإدارة الحكومية نفسها .

وتزوجته .. وانتقلت إلى بيت آخر ورجل آخر .. دون أن تنسى الحرص على تناول حبوب منع الحمل .. وقد حقق لها هذا الزواج فعلا تأكيد نجاحها فى التليفزيون .. لم تعد تقدم برنامجا واحدا فى الأسبوع بل برنامجين .. وأحيانا ثلاثة .. وخطابات المشاهدين تنهال عليها بالمئات .. والهيئات الثقافية تتمنى اللحظة التى تشرفها بالاشتراك معها فى ندوة .. والصحف لا تطرق موضوع التليفزيون إلا وتضعها على قمته .. حتى إنها بدأت تمر عليها لحظات تتخيل خلالها أن زوجها الأستاذ حازم منتصر أصبح يغار منها .. ويخاف على مستقبله من مستقبلها ..

(٧)

ومضت الشهور وهى تتباهى بحلية نجاحها فى التليفزيون .. ولكنها فى خاطر سريع مفاجئ اكتشفت أنها وصلت إلى الخامسة والثلاثين من عمرها .. ورغم أنها لم تنس أبدا أنها أنثى وعاشت تستغل أنوثتها إلا أن هذه الأنوثة بدأت تنبض نبضا لم تكن تحس به من قبل .. إنها تريد أن تكون أما .. تريد أن تحمل وتلد وترضع .. تريد أن تتحلى بحلية جديدة تصنعها بنفسها وتتباهى بها .. حلية الأمومة .. ولم يكن ما أثار فيها هذا النبض هو حبها لزوجها الأخير الأستاذ حازم منتصر .. ودوافع إرضائه والتباهى به أبا لأولادها .. أبدا .. كل دوافعها انطلقت من غرائزها كأنثى ..

وانقطعت فورا عن تناول حبوب منع الحمل .. ولكن مرت الشهور الطويلة وهى لا تحس بأى إحساس جسدى يبشر بالحمل .. ولا يحدث أى انتفاخ فى بطنها .. لعل زوجها لا يملك القدرة على الإنجاب وبذر بذرة الطفولة فى أحشائها .. ورغم ذلك فقد ذهبت إلى طبيب أكد لها بعد الكشف عليها أن ليس فيها أى عائق يحول دون أن تحمل .. فبدأت تحاول أن تقنع زوجها بأن يذهب هو إلى الطبيب لعله يداوى نقصه .. ولكن الزوج يرفض .. إنه متأكد من اكتمال رجولته .. ثم إنه لا يريد أن يكون له ابن ، لا منها ولا من غيرها .. ويوصيها أن تعود إلى تناول حبوب منع الحمل صدا لأى احتمال بالإنجاب .. ولكنها لم تعد إلى حبوب منع الحمل .. ولم تكف عن المحاولة والإلحاح .. إنها لا تستطيع أن تكف عن محاولة تحقيق النجاح فيما تريده.. وهى الآن تريد أن تحقق نجاحها كأم..

حتى إن تباهيها بحلية التليفزيون بدأ يخمد ..

وفى إحدى الدعوات الخاصة لدى بعض الأصدقاء التقت بالشيخ مسعود أبو المكارم .. وهو شخصية سعودية من رجال الأعمال يتردد على مصر كثيرا .. وهو شاب ربما أصغر منها عمرا رغم أنه يحمل لقب شيخ الذى يحمله أفراد العائلات الكبيرة فى السعودية .. وقد أبدى الشيخ اهتماما كبيرا وانبهر بلقائها حتى إنه قضى السهرة كلها والحديث لها وعنها وحدها .. إنه يسجل كل ما تظهر به على شاشة التليفزيون .. ويملك أشرطة ڤيديو لكل الأفلام السينمائية التى ظهرت فيها .. وقد جمع كل ما كانت تنشره من قصص وهى صغيرة .. ويعلم الكثير عن أيامها أيام كانت أستاذة فى الجامعة .. إنه يعيش كل حياتها .. وقد قضت بجانبه ليلة سعيدة مزهوة بكل تاريخ نجاحها .. وكلماته كأنها منفاخ ينفخ فيها مزيدا من الزهو والتفاخر بالنفس .. وفى اليوم التالى فوجئت بهدية منه تصل إليها .. إنه دبوس من الماس الصافى لا شك أن ثمنه لا يقل عن عشرات الآلاف .. وفرحت بالهدية فرحة الدهشة .. لا شك أن الشيخ مسعود ثرى .. فى منتهى الثراء.. صاحب ملايين .. وزوجها لم يستطع أن يقاوم فرحته بالهدية رغم أنها لزوجته إلا أنه حاول أن يستهين بها كأنه تعود على مثلها ..

وبدأ فكرها وخيالها يأخذها إلى عالم جديد كان بعيدا .. إنها ليست فى منتهى الثراء ولو أنها لم تكن محتاجة أبدا .. فلماذا لا تحاول أن تصل إلى هذا المنتهى من الثراء .. أن تنجح فى أن يكون بين يديها ملايين الدولارات .. ثم إنها إذا كانت تريد أن تكون أما لها ابن فلماذا لا تخطط لتضع هذا الابن على القمة .. القمة العالمية .. أى قمة أصحاب الملايين .. إنه يستطيع أن

يتلقى العلم فى إنجلترا أو أمريكا .. ويستطيع أن يشترى الناس والمناصب والشهادات .. إلى أن تصبح أما لرئيس وزراء أو لرئيس أكبر مؤسسة عالمية .. أى لماذا لا تحاول أن تسعى إلى الشيخ مسعود حتى يصبح والد ابنها .. إنها تعلم أن أصحاب الملايين العرب يتباهون بالحصول على النساء المشهورات .. ويشترونهن بالثمن الغالى .. والشيخ مسعود يؤمن بأنها امرأة عظيمة مشهورة .. ولكنها لن تقبل أن يشتريها إلا بالزواج ..

ومرت الأيام بسرعة وهى مركزة كل مواهبها فى امتلاك الشيخ مسعود .. وقد حققت منتهى النجاح وعلقت حلية جديدة تتباهى بها .. تم طلاقها من الأستاذ حازم منتصر مع الاحتفاظ بخيط يجمعهما فى حلاوة الذكريات .. وتم زواجها بالشيخ مسعود ..

وقد حملها الشيخ مسعود إلى بلدته .. وبدأت تعيش هناك مجتمعا غريبا .. وحياته عجيبة عليها .. إنه يقيم فى قصر خاص به .. وحوله عدة بيوت أو قصور كل منها مخصص لزوجة من زوجاته الثلاث أو لجارية من جواريه .. ويختار من بينها القصر الذى يقضى ليلة فيه .. وقد بدأ بأن كان يخصها بكل الليالى ولكنه بدأ يباعد بين لياليه معها متنقلا بين باقى القصور ..

وهى تتحمل هذا المجتمع الغريب .. فهى التى اختارته .. ويخفف عنها أنه كان يخصها دون بقية نسائه باصطحابها كلما سافر إلى الخارج .. ويطوف بها العالم متباهيا بها وبثقافتها وشهرتها .. وكل ما تنتظره هو أن تلد .. وبعد أن تملك مولوده ربما بدأت تبحث عن حلية أخرى تظهر وتتباهى بها ..

ولكنها لا تحس بأى بارقة تبشر أنها حامل .. ولا يمكن أن تتهم زوجها

بأنه عنين وأنه هو العاجز .. فقد أنجب من الأخريات كثيرا من الأبناء قيل لها إن عددهم خمسة وسمعت أنهم عشرة .. لا شك أنها هى العاجزة عن الإنجاب .. وبدأت وهى تطوف العالم تتردد على الأطباء .. استسلمت لإجراء أكثر من عملية جراحية .. كأنها تمزق فى لحمها وشحمها .. لقد قامت بعملية فى لندن .. وعملية فى واشنطن .. وعملية فى طوكيو .. ورغم ذلك فهى لم تنجب بعد ..

وكانت قد استطاعت من قسوة ما تعانيه داخل هذا المجتمع الغريب أن تقنع الشيخ مسعود بأن يتركها تقيم فى القاهرة ويتردد عليها فيها أو يصحبها فى طوافه حول العالم .. واقتنع الشيخ مسعود وتركها تعيش فى القاهرة ويطير إليها كل شهر .. أو يرسل إليها تذكرة طائرة لتلحق به فى إحدى عواصم الدنيا .. وهى دائما فى انتظاره .. ودائما تجرى وراءه .. لا لأنها تريده ولكن لأنها ليس من عادتها أن تفقد الأمل فى أى شىء تريده .. وهى تريد أن تلد ..

(٨)

إن فريدة الآن فى الخمسين من عمرها .. وقد بدأ الشيخ مسعود يغيب عنها طويلا .. وقد يمر عام أو أكثر دون أن تراه .. ولكنه لم يطلقها .. ربما لأنه لم يجد زوجة رابعة أخرى حتى يطلقها هى .. وفى كل فترة يصل إليها المبلغ الوفير الذى خصصه لإعالتها .. وهى تعيش وحيدة فى القصر الفخم الذى أقامه لها فى ضاحية مصر الجديدة قريبا من المطار الذى يمكن أن يصل إليه يوما ما ..

وكل ما يشغلها وهى فى وحدتها هو أن تسعى لأن تلد .. وأن تكون أما .. إنها لا يمكن أن تستسلم لليأس .. ولا تفقد ثقتها بنفسها إلى حد الاعتراف بالعجز عن الوصول إلى تريد .. وقد أصبحت لا تكتفى بالأطباء حتى بالعالميين منهم .. لقد أصبحت تجرب قدرة العفاريت وتسلم نفسها للدجالين الذين يدعون لها تحضير الأرواح واختراق الغيب .. ويلفونها بالأحجبة المباركة .. بل إنها بدأت تقيم جلسات « الزار » وترقص بين دقات الدفوف وتتلوى كأنها تثير كل خلجاتها تحت أقدام العفاريت .. وتتمادى فى الاستسلام حتى لو اضطرت أن تجرب رجلا آخر قد يحقق لها الأمومة فى الحرام ..

إلى أن بدأت تقتنع بأنه لم يعد هناك رجل يمكن أن تعتمد عليه وتسلط عليه أنوثتها الجذابة حتى يحقق أهدافها .. ولم تعد تستطيع أن تستمر فى الاعتماد على العفاريت والدجالين .. وهى لم يعد لها هدف إلا أن تنجب طفلا .. أى أن تستكمل نقصها كامرأة بأن تصل إلى الأمومة .. والقادر الوحيد على استكمال هذا النقص هو الله .. وربما كانت فى حاجة إلى معجزة .. والله هو رب المعجزات ..

ووجدت نفسها تعيش فى تخطيط جديد يشمل كل كيانها وكل لحظاتها .. تخطيط ينحصر فى محاولة التقرب إلى الله والوصول إلى رضائه ورحمته بها وعطفه عليها .. لعله سبحانه وتعالى يهبها المعجزة .. وقد وصلت إلى منتهى العطاء .. كانت تقضى كل نهارها وكل ليلها فوق سجادة الصلاة .. إلى أن يغلبها النوم فتنام أيضا فوق السجادة .. ثم بدأت تجود بكل ما بين يديها للغلابة والمساكين .. ثم انضمت إلى جماعة الهداية الإسلامية التى ترعى المسلمين وأصبحت عضوا بارزا فيها تأمر فتطاع .. ثم أنفقت كل ما ادخرته مما يمدها به زوجها الشيخ مسعود على بناء مسجد

كبير .. وأقامت فيه مدرسة لتعليم القرآن ومكتبة ضخمة تجمع كتب التفسيرات الدينية .. وعرفت واشتهرت بأنها من أبرز الداعيات إلى الهداية والإيمان .. إنه نجاح جديد تتحلى به وتعلقه على صدرها فى منتهى التباهى به بين الناس ..

وهى لا تزال فى انتظار تحقيق الهدف الأعلى .. أن تصل إلى الأمومة .. فهى لا تستطيع أن تنسى أنها امرأة .. والمرأة لا تستكمل أنوثتها إلا بأن تعيش الأمومة ..

حتى بعد أن وصلت إلى سن الخمسين .. لا تزال تنتظر .. فالله هو رب المعجزات وهى واثقة أنها ستصل إلى رضاء الله حتى تقنعه جل وعلا بأن يمن عليها بتحقيق ما تريد .. حتى لو كانت تريد معجزة ..

إنها لا يمكن أن تيأس ، فلم تعرف اليأس أبدا ..

ابنة المرحوم ...

استقبل الدكتور عبد الحى نعمان مريضته الجديدة ميرفت مصطفى رشدى بترحاب وحنان يفوق ما تعوده فى استقبال مرضاه .. فهى ابنة المرحوم الأستاذ مصطفى رشدى الذى كان من أشهر وأجرأ كتاب مصر وأقدرهم على فرض آرائه التى يكتبها وينشرها فى الصحف .. والدكتور عبد الحى تعود على أن يستقبل كثيرا من المشاهير ومن أبنائهم وبناتهم .. وهو نفسه أصبح أشهر طبيب نفسانى فى مصر .. أى أن الشهرة لم تعد تنعكس على إحساسه وهو يستقبل مرضاه .. ولكن المرحوم الأستاذ مصطفى رشدى كان له وضع خاص بين المشاهير بالنسبة له .. فقد قضى فترة طويلة من شبابه وهو متأثر بآرائه التى كان ينشرها .. وهذه الآراء كان لها تأثير كبير فى تحديد اتجاهاته السياسية .. بل حتى وهو يدرس ليكون طبيبا متخصصا فى علم النفس كانت دراساته تشمل تحليل ما يكتبه الأستاذ مصطفى رشدى .. كان ما يكتبه الأستاذ مصطفى رشدى يقوم على التحليل السياسى وكان عبد الحى يأخذ هذا التحليل ويحيله إلى تحليل نفسية الشخصيات السياسية التى يعنيها الأستاذ رشدى .. وهو ما ساعده على وضع نظرية جديدة فى علم النفس اشتهر بها .. وهى نظرية تقول إن مبادئ واتجاهات وتصرفات الفرد المتعلقة بالسياسة تخضع لوضع حالته النفسية التى تبدأ بالحالة التى ولد بها وتتشكل بالمجتمع الذى عاش فيه .. حتى إنه — أى الدكتور عبد الحى — وضع دراسة واسعة فى تحليل الحالة النفسية التى تكون شخصية محمد نجيب وجمال عبد الناصر

وأنور السادات الذين وصلوا بها إلى حكم مصر ودفعتهم إلى تصرفاتهم كحكام .. وهى دراسات لم ينشرها إنما كان يقوم بها ويسجلها فى أوقات فراغه ويحتفظ بها على أمل أن يجمعها يوما ما فى كتب تصدر كنوع من الدراسات التاريخية ..

ولهذا استقبل ميرفت بكل هذا الترحاب والحنان .. كأنه يحيى ذكرى المرحوم والدها الأستاذ مصطفى رشدى ..

وكان أول ما التقطه منها بعينى الطبيب النفسانى أن نسبة كبيرة من شخصيتها ربما أكثر من خمسين فى المائة من دوافع هذه الشخصية مركزة على إحساسها بأنوثتها وجمالها .. ويبدو ذلك فى اختيارها لتسريحة شعرها .. وفى انطلاق نظرات عينيها .. وفى الابتسامة التى تعلقها بين شفتيها .. وفى الثوب الذى يغطى قوامها الرشيق .. وفى الحذاء العالى الذى تخطو به ويحدد هزات قوامها .. وهى فعلا أنثى جميلة ..

وجلست على المقعد الملاصق لمكتبه ولاحظ أنها تعمدت أن تكشف عن ساقيها وهى جالسة .. وعيناها مبحلقتان فى وجهه وتدور فيه كأنها تلتقط كل خط وكل لمحة منه .. وأحس بالحرج أمام نظراتها الجريئة حتى أصبح كأنه يحاول أن يهرب من عينيها .. وقال وهو يخفض عينيه عنها :

ــ إنى لا أستطيع أن أنسى المرحوم والدك .. لقد كنت معجبا به ومتأثرا بكل آرائه ..

وقالت وهى لا تزال مبحلقة فيه بعينيها :

ــ وأنا معجبة بك ..

ورفع إليها عينيه فى دهشة .. وبدأت شخصيته كطبيب تتغلب على حرجه .. وانطلق عقله يحاول أن يحدد حالتها المرضية .. إنه يعرف هذا

النوع من المرض .. وقبل أن يتكلم استطردت ميرفت قائلة :

ـــ إنى لست مريضة جئت إليك للعلاج .. إنى معجبة ..

وقال ضاحكا وقد بدأ تنفيذ خطة العلاج كما طرأت على عقله :

ـــ أى نوع من الإعجاب ؟..

وقالت وهى تسلط عليه ابتسامة مغرية :

ـــ إنى أترك لك حرية تحديد ما تريده من إعجابى ..

وقال من خلال ابتسامته :

ـــ ربما كنت أنت من هواة دراسة علم النفس .. وهو علم ليس مقصورا على المتخصصين ، إنه يجذب الكثير من الهواة .. وكأن إعجابك بى هو اعتراف بأنى أستاذ فى هذا العلم فتأثرت بى كما تأثرت أنا بوالدك .. وهو إعجاب يشرفنى ..

وصاحت وهى تلوى شفتيها فى إغراء كأنها تلومه :

ـــ إنى لم أهتم بك كطبيب أبدا .. وقد اشتريت كتابا فى علم النفس ولم أقرأه إنما اشتريته فقط لأنه يحمل اسمك .. وكل الصحف والمجلات التى تنشر فيها مقالات علمية أحتفظ بها دون أن أقرأ ما كتبته إنما لأحتفظ بصورتك التى تنشر مع ما تكتبه .. ودائما أتتبع أخبارك .. ودائما أقاومك .. ولكنى لم أستطع أن أستمر فى المقاومة .. ولم تكن هناك وسيلة كى أصل إليك إلا أن أدخل عيادتك كمريضة .. ولكنى لست مريضة ..

وصاحت مستطردة :

ـــ تأكد أنى لست مريضة ..

وقال مبتسما وفى لهجة يحاول أن يخفى بها شخصيته كطبيب :

ــ منذ متى وأنت تهتمين بي كل هذا الاهتمام ؟

وقالت وكأنها لا تزال تلومه وكأنها تبخل أن يضيع الوقت فى الكلام :

ــ لا أدرى منذ متى .. فأنت مشهور .. مشهور جدا .. واسمك يتردد فى أذنى منذ بدأت أسمع .. وكل البنات يتحدثن عنك سواء كانوا يعرفونك أو لا يعرفونك .. ولا أدرى منذ متى بدأت أعجب بك إلى أن بدأت أريد أن أعرفك ..

وقال وشخصية الطبيب تفرض نفسها عليه :

ــ إنك كما تعرفينني أريد أن أعرفك .. وأعرف كل شىء عنك حتى أستطيع أن أحدد ما أريد من إعجابك بى .. ومن إعجابى بك أيضا .. أعترف أنى منذ وقعت عينى عليك وقد دهمنى الإعجاب .. ولكنى أريد أن أعرفك بطريقتى الخاصة .. فتفضلى وارقدى على هذه الأريكة التى تعودت أن أعرف كل من يرقد عليها ..

ونظرت ميرفت إلى الأريكة الجلدية الممتدة التى تعود مرضى النفس أن يرقدوا عليها وهم يعرضون حالتهم .. وابتسمت كأنها فهمت شيئا آخر .. وقامت وألقت نفسها على الأريكة وهى تبتسم ابتسامة مغرية .. وتعمدت أن يظل ثوبها يكشف عن ساقيها وهى راقدة .. وأيضا رقدت على طرف الأريكة كأنها تتعمد أن تترك مكانا بجانبها لشخص آخر ..

وقام من وراء مكتبه وشد مقعدا خلف رأسها وجلس عليه وبين يديه دفتر صغير وبين أصابعه قلم .. والتفتت إليه وقالت كأنها تنهره :

ــ لماذا جلست ورائى ؟

وقال فى هدوء :

ــ حتى أتركك تحسين بأنك حرة وأنت تتحدثين وكــأنك

تحادثين نفسك ..

وقفزت من فوق الأريكة ساخطة وعادت تجلس على المقعد وهى تقول :

ــ إنك تعاملنى كمريضة وقد قلت لك إنى لست مريضة .. وعندما طلبت منى أن أرقد كنت أنتظر أن ترقد بجانبى ولكن يبدو أنك لست معجبا بى ..

ولم يفاجأ فقد تعود على مفاجآت المرضى وإن كانت هذه المفاجأة قد أدهشته .. وقام فى هدوء وعاد وجلس إلى مكتبه وهو يقول :

ــ قلت لك إنى أريد أن أعرف كل حياتك حتى أحدد نوع إعجابك بى ..

وصاحت وهى تنظر إليه بكل عينيها :

ــ لا تحاول أن تخدعنى كطبيب .. أنت معقد وأعرف عقدتك .. فأنت لا تستطيع أن تصدق أن فتاة فى مثل سنى يمكن أن تحب رجلا فى مثل سنك .. وأحب أن أقول لك إنى لم أحب فى حياتى أبدا شابا من الشبان .. بل إنى احتقر الشبان وأعتبرهم كلهم فى منتهى التفاهة .. كل الذين عرفتهم من الكبار وكلهم كانوا معقدين مثلك .. لا يستطيعون أن يقدروا أن شخصية البنت قد تنضج إلى حد أن تصبح شخصية أكبر من سنها ولا تستطيع أن تعايش إلا الكبار ..

وابتسم لها وهو ينظر إليها فى حنان كأنه يشكرها على أنها دلته على العقدة التى تعانى منها .. عقدتها هى لا عقدته هو .. إنها فتاة لا يمكن أن يكون عمرها قد تجاوز الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها وهو قد تعدى الستين .. بالضبط ستون وثلاثة أشهر .. فكيف يمكن أن تعجب به كل

هذا الإعجاب وتسمى إعجابها حبا .. إنها عقدة منتشرة .. ومهمته أن يكشف بذور هذه العقدة وينزعها من نفسها حتى يخلصها منها ويعود بها فتاة سليمة ..

وقال مبتسما :

— هل كان فى حياتك كثير من العواجيز ؟

وصاحت فى حدة :

— إنى لم أكن أعتبرهم عواجيز .. إنهم رجال كاملو النضج .. لقد عرفت الأستاذ إبراهيم مرتجى مدة طويلة .. ولعلك تعرفه .. إنه مشهور .. بل سأقول لك سرا قد لا يجب أن أكشف لك عنه .. إنى منذ أعجبت بك وأنا أعجب فى الوقت نفسه بالأستاذ محمود سامى نجم السينما المعروف .. وسنحت لى عشرات الفرص لأعرفه ولكنى لم أعرفه لأن إعجابى بك كان يتغلب على إعجابى به ..

وابتسم فى بساطة .. إنه يعرف محمود سامى .. إنه من عائلته وهو صديق بحكم تقاربهما فى السن .. إنه فى التاسعة والخمسين وإن كان لا يزال محتفظا بحيويته ورشاقة قوامه ، وأجرى عملية شد بها جلد وجهه فأصبح يبدو أصغر من سنه .. ولكن يبدو أن عقدة ميرفت ليست مقصورة فقط على التعلق بالرجال الذين يكبرونها .. أى العواجيز .. ولكنها عقدة تشمل أيضا التعلق بالمشاهير .. إن إبراهيم مرتجى كاتب مشهور .. ومحمود سامى نجم سينمائى مشهور .. وهو طبيب وعالم نفسانى مشهور .. إنها مصابة بعقدة نفسية واسعة .. فكيف يكتشف بذور هذه العقدة ؟

وقال لها وهو يمد يده فوق المكتب ويمسك بيدها :

— ثقى أنى أريد أن أحتفظ بك .. ليس كطبيب .. ولكن كصديق .. وأترك صداقتنا تقودنا إلى ما تنطلق إليه .. فأعطينى حق صداقتك ..

وقالت وهى تنظر إليه وأصابعها (تنغبش) فى يده التى تمسك بيدها :

— كيف ؟

وقال بسرعة :

— بأن أراك بعد غد .. فإنى لا أستطيع أن أبقى معك الآن وأنت تعلمين أن المرضى فى انتظارى ..

وقالت فرحة :

— أين أراك ..

وقال من خلال ابتسامة فرحة :

— هنا .. فى نفس الوقت ..

وقالت وقد انكمشت فرحتها :

— أليس لديك مكان آخر نلتقى فيه حتى لا أشعر بك كطبيب ..

قال وهو يضغط على يدها أكثر :

— عندى .. ولكن تحملى لقاءنا فى العيادة إلى أن تأخذنا الصداقة إلى خارجها ..

وقفزت واقفة وانحنت برأسها وفاجأته بقبلة سريعة على خده .. وجرت نحو الباب قائلة :

— سأراك ..

وقد شغلت عقدة ميرفت كل ما كان يتركه له المرضى الآخرون من فكر .. وقبل أن يلقاها بذل مجهودا كبيرا ليجمع كل ما يستطيع أن يعرفه

عنها وعن عائلتها وعن أيامها .. وعرف الكثير .. وقد انتهى إلى تحديد العقدة النفسية التى تسيطر على كل تصرفاتها وتجعل منها فتاة غير طبيعية .. إنها عقدة استسلامها التام لسيطرة شخصية أبيها على شخصيتها .. ومعروف أن أول رجل تحبه أى بنت هو أن تحب أباها .. ومعروف أن حب البنت لأبيها يختلف فى عناصره وفى مظاهر التعبير عنه عن حب الولد لأبيه .. وكذلك بالنسبة لحب الأم .. فاختلاف الجنس يؤثر حتى على العناصر النفسية بين البنات والآباء والأولاد والأمهات .. وقد مرت مرحلة فى بداية تاريخ البشرية كان الأب يمكن أن يتزوج ابنته والأم يمكن أن تتزوج ابنها .. وإلى اليوم يسمع عن حالات مرضية نفسية شاذة نادرة تقوم على علاقات جنسية ربطت بين البنت وأبيها أو بين الابن وأمه .. وهو ما يؤدى إلى نوع من اختلال العقلية ويعتبره المجتمع ظاهرة من ظواهر الجنون .. ومفروض أن حب البنت لأبيها يبدأ ويتطور كإحساس فى حماية المجتمع .. أى أن المجتمع الإنسانى هو الذى حدد ونظم انطلاق الإحساس بالأبوة وبالأمومة وبالأخوة .. و .. و .. كأنه وضع لائحة مزاولة الحياة لتنظيمها .. المجتمع هو الذى وضع قيود هذه الأحاسيس وليست الطبيعة البشرية هى التى فرضتها من ناحية اختلاف الجنس ..

وميرفت هى الابنة الوحيدة للمرحوم الأستاذ المشهور مصطفى رشدى .. ليس لها أخ ولا أخت .. وكان أول ما وعته أحاسيسها هو حبها لأبيها .. ولم يستطع المجتمع الذى يحيط بها أن يحدد لها طبيعة هذا الحب .. وعلى العكس .. فلأن أباها مشهور جدا فإنها وعت والمجتمع كله لا يعاملها ولا يراها إلا كابنة مصطفى رشدى .. ولم يحاول المجتمع أن يعترف لها بشخصية قائمة بذاتها .. كفتاة جميلة .. أو فتاة ذكية .. إنها

فقط ابنة مصطفى رشدى .. وحتى أمها فرغم أنها امرأة نشيطة ولها حياتها الخاصة فإن المجتمع الإنسانى الذى يحيط بها لا يعترف لها إلا بصفتها كزوجة الأستاذ مصطفى رشدى .. إن ميرفت نفسها كان إحساسها بأمها يغلب عليه اعتبارها زوجة أبيها ويؤثر على قدرتها على الانفصال بها بعيدا عن أبيها كأم .. كل هذه الأحاسيس جعلتها تعيش وهى تتصور أن الرجل الوحيد لها بين كل الرجال هو أبوها .. وفى نفس الوقت كان أبوها مفرطا فى حبه لها .. كانت هى كل ما يسعده بل ما يربطه بالحياة .. ولم يكن يبذل أى جهد فى تربيتها على شخصية كاملة قائمة بذاتها ، بل ربما عودها على أن تكون أقوى منه .. فكل ما تريده وهى لا تزال طفلة هو الذى يتحقق .. إنها نقطة ضعفه وهى أقوى من أمها .. وربما كان يمكن أن يتطور كل ذلك مع السنوات حتى تحدد ميرفت شخصيتها مستقلة عن أبيها .. ولكن الأب مات وهى لا تزال فى العاشرة من عمرها وتركها وهو لا يزال يعيش فى داخل إحساسها مسيطرا على شخصيتها .. ومضى عمرها وهى كأنها تبحث عنه .. أو تبحث عمن يعوضها عنه .. تبحث عن رجل يمثله .. عجوزا مثله ومشهورا مثله ..

وقرر الدكتور عبد الحى نعمان أن العلاج الوحيد الذى يمكن أن يشفى ميرفت هو أن يخلصها من شخصية أبيها .. وأن يجعل منها شخصية قائمة بذاتها حتى تستطيع أن تعيش حياة طبيعية ..

وعندما جاءته فى العيادة للمرة الثانية بذل جهدا حتى يخفى عنها شخصيته كطبيب ويقنعها مخادعا بأنه مجرد صديق وهى ليست مريضة ولكنها صديقة .. وبعد حديث طويل بذل فيه كل مهارته كطبيب معالج حتى لا يشعرها أنه يعالجها .. قال وهو يدعى التردد :

ـــ هناك ما يجعلنى حائرا فى الاستسلام لإحساسك نحوى .. فقد قلت لى إنك كنت معجبة بالممثل السينمائى محمود سامى .. ولكن إعجابك بى تغلب على إعجابك به .. ولكنك الآن تعرفيننى ولا تعرفينه .. وربما لو التقيت به وعرفتيه لعاد إعجابك به يتغلب على إعجابك بى وتتركيننى إليه .. والواقع أنى لست مطمئنا إليك ..

وقالت وهى تضع يدها على يده :

ـــ كيف أجعلك تطمئن ؟

قال وهو يمثل كأنه فى حالة عصبية ويدير وجهه عنها :

ـــ لن أطمئن إلا إذا عرفت محمود سامى كما عرفتينى ورغم ذلك تبقين لى .. أى تفضلين صداقتى على صداقته ..

وقالت فى دهشة تنطلق مع ابتسامتها :

ـــ هل تريدنى أن أعرفه ؟.

قال وهو مستمر فى ادعاء حيرته :

ـــ فعلا .. وأنا مطمئن أن معرفتك به لن تمسك ولن تغير منك شيئا إذا بقيت على إعجابك بى ..

قالت ضاحكة :

ـــ سأعرفه .. لأجل خاطرك ..

وتركته بعد أن ألقت نفس القبلة السريعة على خده ..

ورفع سماعة التليفون فورا بعد أن خرجت وطلب صديقه محمود سامى وقال له فى لهجة جادة كأنه يأمره :

ـــ أريد أن أراك اليوم بعد موعد العيادة .. أمر هام ..

وجاءه محمود سامى .. وجلس الدكتور عبد الحى يحلق فيه برهة

كأنه يحاول أن يحلله تحليلا نفسيا إلى أن قال :

ـ إنى أريد أن أستغل مواهبك كممثل .. لا لتمثل دورا فى السينما .. ولكن لتمثل دورا ينقذ مريضة ..

وقال محمود سامى فى دهشة :

ـ طول عمرك تستغلنى ولكنك لم تحاول من قبل أن تعتمد على كتمرجى لحضرتك ..

وقال الدكتور عبد الحى مبتسما :

ـ لن تكون تمرجيا .. ولكنك ستكون الدواء الذى ينقذ مريضة بمجرد أن تقوم بتمثيل دور ..

وصاح محمود سامى من خلال دهشته :

ـ أى دور هذا يمكن أن يشفى مريضتك ؟.

وقال الدكتور عبد الحى فى هدوء :

ـ إنه دور رجل شرير .. فهذه المريضة فتاة شابة تعانى من عقدة نفسية تسيطر عليها وتدفعها إلى أن تختار لنفسها الرجال العواجيز المشهورين .. وهى معجبة بك لأنك عجوز ومشهور .. وهى ستأتى إليك وهى معجبة بك لأنك عجوز ومشهور .. وأريدك أن تمثل أمامها دورا شريرا عنيفا يجعلها تكره كل العواجيز المشهورين إلى حد أن تهرب منهم وتتخلص من عقدتها وتعود إلى حالة طبيعية ..

وقال محمود سامى ضاحكا :

ـ إنى مشهور ولكنى لست عجوزا .. إن كل المراهقات يذبن فى صبابة ..

وقال الدكتور جادا :

ـــ إنهن يذبن فى خيالهن الذى ترسمه الأدوار الغرامية التى تمثلها على شاشة السينما .. ومع احترامى لعملية شد الجلد التى أجريتها على وجهك لتخدع بها الناس عن حقيقة سنك .. فإنى أريدك أن تكون عجوزا أمام هذه الفتاة .. إنك فى التاسعة والخمسين وهى فى الثانية والعشرين .. وهو فرق كاف بينكما وهو الفرق الذى دفعها إلى الإعجاب بك .. أريدك أن تهدم هذا الإعجاب بأن تقنعها أن الفتاة الشابة لا يمكن أن تطيق أى عجوز .. إنها مهمة إنسانية لإنقاذ مريضة .. وقد اخترتك لأنك ممثل رائع ولأنى واثق أنك إنسان رائع أيضا ..

وطال الحديث بين الدكتور عبد الحى وصديقه محمود سامى شمل كل تفاصيل مهمة العلاج .. ووافق محمود سامى على أن يقوم بهذه المهمة ، واتفق مع الدكتور على أن يعطيه تقريرا بالتليفون عن كل لقاء يتم بينه وبين ميرفت ..

ومرت أيام إلى أن اتصل محمود سامى بالدكتور عبد الحى نعمان وقال وهو يضحك :

ـــ لقد صدمتها فى أول لقاء ومثلت أمامها دور السكران رغم أننا كنا فى الظهر .. وقد جعلتها تخاف من هذا السكران ، وعندما عابت على أن أكون سكرانا قلت لها إن كل العواجيز يسكرون حتى ينسون عجزهم عن استرداد شبابهم .. وقد قالت لى إن أباها لم يكن يشرب الخمر . فقلت لها إنه كان معروفا بأنه أكبر سكير ولكنه لم يكن يشرب الخمر إلا خارج البيت .. ولعلها لم تصدق ما قلته عن أبيها ولكن لا شك أنها فجعت فى وهى ترانى سكرانا .. ورغم ذلك فقد طلبت أن ترانى غدا .. ووافقت حتى أستمر فى العلاج إكراما لخاطرك ..

وكان الدكتور عبد الحى يسمع ويسجل على ورق أمامه كل ما يسمعه ..

وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل التالى دق جرس التليفون للدكتور عبد الحى ، وقال سامى فى هدوء :

ـــ آسف .. ولكنك تريد أن أقدم لك تقريرا عقب اللقاء مباشرة .. وقد نسيت أن أقول لك إنى كنت قد حددت لها موعدا فى الساعة التاسعة مساء على أمل أن تعجز عن لقائى .. ولكنها جاءت .. واستمرت معى ولم تتركنى إلا منذ دقائق .. وقد تعمدت أن أمثل أمامها دور السكران .. وغاليت فى التعبير عن أنى سكران حتى إنى بدأت أضربها .. لقد ضربتها بعنف حتى رميتها على الأرض .. وعندما كانت تصيح باكية كنت أقول لها .. لا تنتظرى من العواجيز إلا الضرب فهو المتعة الوحيدة التى بقيت لهم للتعبير عن سيطرتهم على النساء .. ورغم ذلك أصرت على أن نتفق على موعد لقاء آخر .. بل إنها ركعت على الأرض وقبلت حذائى حتى أسمح لها بلقاء آخر .. وحتى أترك للعلاج أثره حددت لها موعدا بعد ثلاثة أيام ..

والدكتور عبد الحى يسجل كل ما يسمعه دون أن يعترض على إيقاظه من النوم فى هذه الساعة المتأخرة .. وبعد أربعة أيام عاد صديقه يحادثه فى التليفون وقال يروى الحكاية :

ـــ كنت قد حددت لها الساعة التاسعة لتأتى إلى لقائى ولكنى تعمدت أن أتأخر عن العودة إلى البيت على أمل أن تيأس منى وتستغنى عن لقائى .. لقد عدت فى الساعة الحادية عشرة .. وإذا بى أفاجأ بها وهى نائمة على

الكنبة فى حجرة الصالون .. لقد فتح لها السفرجى الباب وتركها حرة كما عودته .. وقد استيقظت من النوم بمجرد أن سمعت أقدامى .. لعلها لم تكن نائمة .. وقد ادعيت أنى غاضب لأنها لا تزال فى انتظارى وثرت عليها وألقيت عليها كل الكلمات البذيئة .. ولكنها لا تتأثر .. كأنها تشاهد فيلما مثيرا وتكتفى بالتنهد .. هل تدرى إلى متى بقيت معى .. حتى الثالثة صباحا .. وعندما كنت أقول لها إن أمها قد تجن عندما لا تعود إليها حتى هذه الساعة .. قالت فى بساطة .. كل مشكلة لها حل .. وأمى تعلم أين أنا رغم أننا لا نتفق أبدا فى شىء .. ولكنى أجبرتها على أن تتركنى وتغادر البيت .. طردتها .. فالبيت بيتى ورثته عن أبى بل إنى تركتها تخرج وحدها فى هذه الساعة المتأخرة .. لعلها تعانى ما يجعلها تكرهنى وتتركنى أعيش وحدى ..

وقال الدكتور عبد الحى لصديقه كأنه ينهره :

ــ كان يجب أن تطردها منذ وجدتها فى انتظارك ..

وقال محمود سامى كأنه يعتذر :

ــ إنك لا تعلم مدى تعلقها بى .. وأنا لست طبيبا ولكنى أقوم بتمثيل دور غير مكتوب .. ويغلب على أحيانا أنى إنسان ..

وسجل الدكتور ما سمعه من صديقه ..

ومرت أيام وصديقه محمود سامى لا يحدثه فى التليفون .. لعله لم يعد يلتقى بميرفت .. ولكن ميرفت أيضا لا تتصل به .. أسبوع .. أسبوعان .. وكان يحاول أن يتصل بصديقه ولكنه لا يعثر عليه لا فى بيته ولا فى الاستديوهات السينمائية التى يعمل بها .. إلى أن وجده أخيرا

وصاح فى التليفون :

ـــ أين أنت .. لقد تركتنى دون أن نضع نهاية لمريضتى ..

وقال محمود سامى فى صوت متردد :

ـــ الواقع أنى وصلت معها إلى نهاية لم تدخل فى حسابك ..

وقال الدكتور عبد الحى فى دهشة :

ـــ أى نهاية ؟!

وقال محمود سامى وهو يحاول أن يكون هادئا :

ـــ لقد اكتشفت العلاج الوحيد لميرفت رغم أنى لست طبيبا نفسيا فى مكانتك ..

وعاد الدكتور عبد الحى يصيح فى دهشة :

ـــ أى علاج هذا الذى اكتشفته ..

وقال محمود سامى وصوته يتلجلج :

ـــ لقد تزوجتها .. تزوجت ميرفت .. وكنا نقضى أياما فى الإسكندرية لذلك لم أتصل بك ..

وسكت الدكتور عبد الحى فترة كأنه تلقى صدمة ثم قال وصوته ينبض بالحسرة :

ـــ إنك لم تعالجها ..

وصاح محمود سامى :

ـــ لماذا .. إنك لا تدرى كم تغيرت بعد أن تزوجنا ..

وقال الدكتور عبد الحى متنهدا :

ـــ إنها لم تتزوجك ..

وصاح سامى فى دهشة :

ـ كيف .. لقد تزوجتنى فعلا ..

وقال الدكتور كأنه يحادث نفسه :

ـ لقد تزوجت المرحوم أباها ..

وألقى سماعة التليفون بلا كلمة .. وانطلق مع أفكاره وقد تغلبت عليه شخصية الطبيب .. وهو واثق أن ميرفت ستعود إليه قريبا .. وستعود كمريضة بعد أن يكون مرضها النفسى قد وصل إلى حالة تفرض عليها أن تعترف بأنها مريضة ..

كل شىء قبل أن ينتهى العمر

لقد وجد عبد الجليل نفسه بعد أن تخطى سن الستين وأحيل على المعاش من وظيفته الحكومية .. وجد نفسه وقد بدأت تطرأ على خواطره تخيلات الموت .. ويسائل نفسه متى سيموت ؟. وإلى أين سيأخذه الله بعد الموت .. إلى الجنة أم إلى النار ؟! ثم ماذا سيكون عليه حال العائلة بعد أن يتخلى عنها ويموت .. زوجته وابنه وابنته .. هل تستمر بهم الحياة الهنيئة التى كان يتولى قيادتها لهم .. أى هل يستطيعون الاستغناء عنه بعد أن يطرد من الحياة .. أم تهتز بهم الحياة التى لم يعد يستطيع قيادتها ..

ولم يكن يتعمد التعلق بهذه الخواطر أو دفع خياله إليها .. ولكنها كانت تطرأ عليه وتزحف على فكره رغما عنه .. وخصوصا وأنه لا يواجه أى حالة تهدد بموته .. فهو فى صحة سليمة كاملة .. ولم يطرأ على حياته أى أزمة تدفعه إلى إنهاك نفسه على حساب صحته حتى يؤدى به الإنهاك إلى الموت .. حتى لو كانت إحالته إلى المعاش قد دفعته إلى الإحساس بأنه أصبح عجوزا .. فلا فرق بين الشباب والعواجيز إلا فى مجالات ممارسة الحياة لا فى القدرة على الحياة نفسها .. ما دامت الصحة متوافرة لكليهما .. بل كان وهو عجوز يتعمد ممارسة مجالات كان متعودا عليها أيام شبابه ومدمنا لها أيام رجولته .. فكان يفاجئ زوجته أحيانا ويشدها إليه وهما على الفراش .. ويفرح لأنه استطاع أن يصل بالمتعة حتى نهايتها .. وإن لم تكن فرحته بالمتعة نفسها ولكنها فرحة بقدرته على توفير هذه المتعة لنفسه رغم أنه أصبح عجوزا .. وزوجته تتلقى هذه المفاجأة

باستسلام فهى لا تشعر بأى دافع يثير فيها الإقدام على هذه المتعة .. بل إنها نسيت كيف تمارس مسئوليتها فى تحقيق متعة كاملة لزوجها .. حتى عندما يقبلها وشفتاه بين شفتيها أصبحت تحس بثقل هذه القبلة حتى تكاد تخنقها .. وتتمنى أن يزيح شفتيه عن شفتيها ويكتفى بأن يسقطهما على خدها أو على جبينها .. ولكنها تستسلم صاغرة لثقل جسده على جسدها .. وتخفف عنها فرحة ساخرة وهى تحمد الله على أنه لا يزال يستطيع أن يمارس المتعة الشرعية .. حتى ولو فى السنة مرة ..

بل إن عبد الجليل حتى يهرب من خاطر الموت الذى بدأ يخطر على خياله بعد أن أحيل إلى المعاش .. استطاع أن يجد عملا فى إحدى الشركات الخاصة يستغرق نفس الوقت الذى كان يقضيه فى الوظيفة الحكومية .. حتى لا يستسلم لفراغ فى الحياة يفرض عليه الإحساس بأنه أصبح عجوزا يعيش فى انتظار الموت .. وقد رفع أجره عن هذا العمل الجديد بجانب قيمة المعاش الذى يتقاضاه من الحكومة من قيمة مجموع دخله الشهرى .. أى أصبح يكسب من الحياة أكثر .. والقدرة على الكسب هى ما يميز الشباب على العواجيز .. أى أنه ازداد شبابا رغم أنه عجوز ..

وكان عبد الجليل يحاول أن يقنع نفسه بأن الدنيا قد تغيرت وارتفع مستوى قدرة البشر على الحياة .. كأن الله سبحانه وتعالى قد اتخذ قرارا بمد عمر البشر .. لقد كان البشر قديما يلاحقهم الموت عند سن الأربعين .. أو الخمسين .. أو الستين على الأكثر .. ولكن الحضارة الإنسانية وعلوم حماية البشر من الموت قد تطورت .. وأصبح الموت الطبيعى لا يبدأ فى ملاحقة الإنسان إلا بعد عمر الثمانين .. أو التسعين .. وربما عاش هو حتى

تطور الحضارة وعلوم الحياة أكثر ويفيض الله من كرمه على الإنسان أكثر فلا يلحقه الموت إلا بعد سن المائة .. إنه يسمع عن كثير من البشر وصلوا إلى سن التسعين وهم لا يزالون يعيشون الحياة .. أى أن أمامه عشرين عاما على الأقل قبل أن يبدأ فى انتظار الموت ..

ورغم ذلك فقد كان عبد الجليل كلما دهمته فى حلقه بحة أطلقت منه كحة أو كحتين يجد نفسه منهارا فى تخيل الموت وانتظاره .. أو لحقت به نوبة برد أرقدته فى فراشه مصابا بمرض أنفلونزا خفيفة .. أو أحس بتلبك معوى تعانى منه أمعاؤه .. إن أى مساس بصحته الكاملة يدفعه إلى أن يرقد فى فراشه منتظرا الموت .. حتى عرف بأنه وسواس يبالغ فى تقدير أى طارئ يمس كيان جسده .. وحتى دون أن يمسه أى مرض كان خيال الموت يلاحقه وهو فى تمام الصحة والعافية لمجرد إحساسه بأنه تعدى الستين من عمره ..

وأخيرا تعب ومل المقاومة واستسلم لأوهامه فى انتظار الموت ..

* * *

وكان أقوى ما يسيطر على خياله وأوهامه هو الاطمئنان على مصيره بعد الموت .. هل ينعم الله عليه بأن يسترد حياته فى الجنة .. أم يجمعه مع الكافرين ويلقى به فى النار .. وهو يخاف النار .. ويجد نفسه كلما خطرت جهنم على خياله كما يتصورها يرتعش ويأخذ فى ترديد الدعوات والابتهالات إلى الله أن يرحمه ويغفر له أخطاءه .. وأصبح لسانه يردد مع كل أنفاسه ابتهال .. أستغفر الله .. أستغفر الله .. أستغفر الله .. وهو فى

نفس الوقت يؤكد لنفسه أنه لم يرتكب فى حياته أخطاء تكفى لأن يلقى به الله من فوق الصراط إلى جهنم .. ويتصور أن الملائكة وهم يحاسبونه على حياته فى الدنيا ليختاروا له حياته فى الآخرة سيحيطونه بابتسامة شفقة وهم يستمعون إلى أخطائه التافهة العابرة ثم يبرئونه بأمر الله ويفسحون له الطريق إلى الجنة .. وهو قطعا يؤمن بالله منذ بدأ يعى الحياة .. إيمان يتحكم فى كل تصرفاته الدنيوية .. ولكنه مع هذا الإيمان لم يكن يؤدى الفروض التى فرضها عليه الله .. لقد كان يؤدى الصلاة وهو طفل تقليدا لباقى أفراد العائلة .. ولكنه أخذ يهرب من أداء الصلاة منذ بدأ يلعب مع أطفال الحى .. وكلما كبر فى السن غالى فى الهرب حتى لم يعد فرض أداء الصلاة يخطر على باله أبدا .. بل إنه لم يعد يصوم رمضان .. ولا يتعمد أداء أى تصرف يقصد به التقرب إلى الله .. حتى عندما يوزع من أمواله إحسانا على الفقراء .. لم يكن يوزع كإحسان ولا كأداء لفريضة الزكاة .. كل ما كان يحس به أنه يوزع البقاشيش نظير خدمة أديت له .. ومن لا يقدم له خدمة لا يستحق أى بقشيش .. حتى تعلقه بالقرآن الكريم .. إنه لم يحفظ منه إلا جزء « عم » عندما كان صغيرا وكان مفروضا عليه أن يحفظه ضمن واجبات المدرسة الأولية .. ثم بدأ ما حفظه يضيع من ذاكرته .. ويضيع أكثر كلما تقدم به العمر .. حتى لم يعد يحفظ من كلام يتوجه به إلى الله إلا الفاتحة .. ولم يكن يحس بحاجته إلى ترديدها إلا فى المناسبات العابرة .. ورغم ذلك فهو مؤمن بالله .. والإيمان يقاس بالنيات لا بمظاهر أداء الفروض .. وكم من الذين يتظاهرون بإعلان إيمانهم بأداء الفروض يحملون فى نياتهم الدنيوية كل دوافع الكفر بالله .. وتغلبهم شهوات الدنيا على السعى إلى هناء الآخرة .. ومصيرهم لا شك إلى

الجحيم رغم أداء كل الفروض التى فرضها الله وهو مكتف بنياته .. نيات المؤمن بوجود الله ..

ولكن .. بعد أن وصل عبد الجليل إلى سن الستين وأحيل إلى المعاش وأحس أنه يعيش حياته فى انتظار الموت الذى سيرفعه إلى مواجهة الله .. لم يعد يجد مبررا يقنع به نفسه لإهماله أداء الفروض .. إن الله لم يضع هذه الفروض لهداية كل فرد من بنى خلقه على حدة بحيث يكون لكل فرد حرية تقدير حق خاص له فى تفسير هذه الفروض .. أو حرية أدائها أو عدم أدائها .. مكتفيا بإيمانه بوجود الله .. ولكن الله أوصى بفروضه لتشمل مجموع خلقه .. إنها فروض لتنظيم الحياة كلها وتوفير هداية بنى البشر ليعيشوا الخير والسلام والهدوء .. وليس من حق الفرد أن يخرج عن تنظيم المجموع .. إن الخلق يعيشون الحياة كأنهم فى قطار .. ويجب أن يلتزموا بما فرض على ركوب هذا القطار .. فيدفع ثمن التذكرة .. ويجلس على مقعد مخصص له .. ويراعى التعامل مع بقية الركاب .. ويطيع أوامر القادة .. والقائد الأعلى لقطار الحياة هو الله.. وقد أناب عنه فى إدارته أنبياءه ورسله .. فإذا أخل الركاب بما هو مفروض عليهم .. حتى لو كان المخلون أفرادا .. شاعت الفوضى ولحقت النكبات بقطار الحياة .. والنكبات التى تلحق بقطارات السكة الحديد هذه الأيام هى صورة من النكبات التى تلحق بقطار الحياة .. والسبب واحد .. وهو عدم الالتزام بالفروض المفروضة على الركاب ..

ولذلك بدأ عبد الجليل يندفع فى أداء الفروض التى تربطه بالله .. وكان يبالغ فى أدائها كأنه يكفر عما فاته منها طوال حياته السابقة .. فيصلى الفرض والسنة .. ويبالغ أكثر فيصلى صلاة العشاء بعشرين ركعة ..

ويصوم قبل شهر رمضان شهرى رجب وشعبان .. وكل ساعات فراغه من عمله ومن أداء الفروض يقضيها فى تلاوة القرآن .. وهو يحاول أن يحفظه كله لا مجرد استعادة حفظ جزء « عم » .. وقد يتعب وهو يؤدى هذه الفروض .. فيستريح .. وما بقى له من عمر لا يكفى لاستعادة ما فاته خلال ستين عاما .. والله غفور رحيم ..

ولم يكن يجالس زوجته وولده وابنته إلا خلال هذه الفترات التى تمر عليه للراحة من مغالاته فى أداء الفروض .. وهم مندهشون مشفقون مما أصبح عليه .. وربما حاولت زوجته مرات أن تشده إليها وتأخذه من بين يدى الله .. أو حاول ابنه وابنته أن يشغلاه بمطالبهما .. ولكنهم كانوا مستسلمين له .. ومهما بالغ فهو يبالغ فى التقرب إلى الله واكتساب رضائه .. ورضاء الله عنه لا شك أنه رضاء يشملهم ويصونهم .. فالله يعطى المؤمنين اطمئنانهم على سلامة كيانهم العائلى بعد موتهم .. بل إن ابنه ربما اعتبر كأن مبالغة أبيه فى أداء الفروض يعفيه هو من أدائها .. فهو يؤدى منها ما يكفى ثوابها عند الله إدخال كليهما الجنة ..

* * *

ولكن عبد الجليل كما كان انتظار الموت يدفعه إلى السعى لاكتساب رضاء الله .. فقد كان يدفعه أيضا إلى الاطمئنان على مستقبل عائلته من بعده ..

وقد أخذ يراجع بدقة كل ما يملكه وما سيخلفه للعائلة لترثه فيه .. وهو يؤمن بأن الإرث المشاع يسبب كثيرا من الخلافات بين الورثة .. خلافات عنيفة قد تصل إلى المحاكم وتقيم العداء بين أفراد العائلة الواحدة .. وهو نفسه كان قد قضى عشر سنوات فى معركة عنيفة مع أخيه قبل أن يتفقا على

تقسيم الإرث المشاع الذى تركه لهما أبوه .. ثم إن العادة قد جرت على تقسيم الإرث قبل وفاة المورث حتى يعفى الورثة من دفع ضريبة التركات الباهظة .. أى أن يتركهم ملاكا لا ورثة ..

وهو يملك سبعة أفدنة زراعية فى قريته القريبة من القاهرة .. وهى أرض تتحول يوما بعد يوم إلى أرض بناء سكنى وترتفع قيمتها ارتفاعا شاهقا .. ولكنه لا يبيع منها قيراطا واحدا .. إنه يحتفظ بها لعائلته حتى تتولى هى بيعها وتكسب ثمنها الغالى .. بل إنه كان حريصا على عدم تأجير هذه الأرض للفلاحين حتى لا يعوق التأجير بيعها .. رغم أنه لم يكن يهتم باستغلالها زراعيا .. بل لم يكن يعرف شيئا فى الزراعة .. والمهم الآن أن يترك هذه الأرض لابنه وابنته .. أى يرفع اسمه عنها ويتركها باسميهما .. وسعى لاتخاذ كل الإجراءات .. ولم يطبق الشريعة بحذافيرها .. أى لم يترك للابن ضعف ما يتركه للبنت .. بل ترك للابن أربعة أفدنة .. وللابنة ثلاثة ..

وهو يملك أيضا مبلغا كان قد حرص على ادخاره .. ولم يستطع طول حياته أن يدخر أكثر من خمسة آلاف جنيه يحتفظ بها فى البنك .. ويحتفظ معها بأسهم لإحدى الشركات العامة كان قد اشتراها أيام زمان بأسعار لا تتجاوز ثلاثة جنيهات للسهم .. وهى لا تدر عليه إلا دخلا لا يتجاوز القروش كل عام .. ولكن من يدرى .. إن الدنيا تتغير .. وقد يصبح لهذه الأسهم يوما ما قيمة مالية لا يستهان بها .. وبدأ يوزع كل مدخراته بما فيها الأسهم على ابنه وابنته .. ويضع اسميهما فى البنك مكان اسمه .. ولم يكن أيضا حريصا على تطبيق الشريعة .. الولد ضعف البنت .. فقد وزع بينهما النصف بالنصف .. ربما لأنه لن يترك لهما إلا مبالغ متواضعة

لا تحتمل تطبيق الشريعة.. والله غفور رحيم.. وهما يوقعان أى ورقة تفرض توقيعهما عليها دون مجادلة أو حتى مراجعة ما يوقعان عليه.إنهما يحبانه منتهى الحب .. بل إنهما لا يعتبران أن شيئا تغير بعد أن أصبحا ملاكا وأصحاب رأس المال .. لا مجرد ورثة .. إن أباهما هو المالك وحده ما دام على قيد الحياة .. أمد الله فى عمره ..

وهو يصل بفكره فى تنظيم حياة الأسرة بعد موته إلى كل التفاصيل .. لمن ستكون الشقة التى تجمع العائلة .. لا بد أن تكون لابنه .. إن الرجل هو المسئول عن إقامة المسكن الذى تقيم فيه عائلته .. وابنته مفروض أن يكون زوجها هو المسئول عن إعداد مسكنها .. أى عن الشقة التى تقيم فيها .. وإلى أن تتزوج فهى أخت وأخوها هو المسئول عن توفير مسكنها .. وكانت شقة العائلة فى عمارة قديمة مؤممة فسعى عبد الجليل لدى المسئولين حتى استطاع أن ينقل عقد الإيجار الذى يحمل اسمه إلى اسم ابنه .. وكان يصل إلى تفاصيل أبعد .. لمن ستكون قطع الأثاث التى سيتركها فى الشقة وبينها تحف تعتبر غالية كان قد تلقاها كهدايا وهو موظف ويعتبرها البعض كأنها كانت رشوة .. ثم إن دولابه مزدحم بأردية ثمينة .. لمن تكون .. إنها أردية رجالى لا شك أنها تقع فى نصيب الابن .. ولكن يجب أن يعوض الابنة عنها .. ولكن لماذا يشغل باله .. إن ثياب الأب للولد .. وثياب الأم للبنت .. ولم يستطع أن يصل إلى أى إجراء خاص بتقسيم كل هذه التفاصيل فيما سيتركه بعد موته .. ولكنه دائما حريص على ألا يقع أى خلاف بين ابنه وابنته حول ما سيرثانه .. فكان يكتفى كل فترة وأخرى أن يشير للبنت على قطعة مما فى البيت ويقول .. هذه لك .. اعتبريها ملكا لك .. أو يشير إلى ابنه ويقول له ..

هذه ملكك .. وخصوصا المقعد الذى كان مخصصا ليجلس عليه طول حياته .. كان يكرر لابنه بأنه سيكون يوما مقعدا مخصصا له هو .. بل بدأ أحيانا يدعو ابنه للجلوس مكانه كأنه يعوده على هذا المقعد ..

وقد بدأ عبد الجليل يحس بأنه لا يستطيع أن يطمئن على مستقبل ابنته إلا إذا تركها متزوجة .. حتى يموت وهو يطمئن إلى شخصية الرجل الذى اختارته، أو كان هو الذى اختاره زوجا لها .. وقد كان من قبل يصر على ألا تتزوج ابنته إلا بعد أن تنتهى من دراستها وتتخرج من الجامعة .. وأيضا بعد أن تلتحق بعمل وتكسب دخلا خاصا بها يوفر لها شخصية قوية تعيش بها فى مواجهة شخصية زوجها .. وقد سبق أن رفض .. عدة خطاب تقدموا يطلبون الزواج .. وكان يرفض رغم أن ابنته لم تثبت أى إقبال على العلم ولم تتفوق فى أى دراسة .. إنها فى التاسعة عشرة من عمرها ولا تزال طالبة فى السنة الأولى من دراستها الجامعية .. ورغم ذلك ظل عبد الجليل مصرا على أن تنتظر إلى أن تستكمل شخصيتها قبل أن تتزوج .. إن الحياة تغيرت .. وأصبح على الزوجة أن تتحصن فى الحياة بالاعتماد على نفسها حتى وهى متزوجة .. ولكن إصرار عبد الجليل بدأ أخيرا يخفت .. إن البنت لا تستطيع اجتياز الحياة وهى وحدها مستقلة بنفسها مهما كانت قوية .. وقيمة شخصية أى بنت لا يستقر تقييمها إلا بعد أن تصبح امرأة .. أى بعد أن تتزوج .. شخصية المرأة لا تقدر إلا بعد ارتباطها برجل .. بل إنه بدأ يتهم نفسه كأنه كان أبا أنانيا .. إنه يحب ابنته إلى حد أنه كان يريد أن يحتفظ بها له وحده .. كان يغار عليها من أن تكون لأى رجل آخر .. بل كانت تنتابه حالة نفسية تعذبه كلما تصورها راقدة فى فراش وجسدها مع جسد رجل حتى لو كان زوجها .. إن حبه لها لم يكن مجرد حب أب

لابنته .. بل كان يحبها كأنه يملكها بكل ما يمكن أن تعطيه المرأة .. هى ابنته وعشيقته وزوجته وأمه .. وقد بدأ يعترف بهذه الأنانية التى ظلم بها ابنته .. ويحاول التكفير عنها .. ويسعى أولا إلى استكمال اطمئنانه عليها قبل أن يموت .. لذلك بدأ يستقبل الخطاب الذين يتقدمون لابنته بالترحيب .. وبدأ أيضا يتودد إلى الآباء الذين يعرف عنهم أن لهم أبناء يصلحون للاختيار من بينهم زوجا لابنته .. وذلك مع الاحتفاظ بكرامته ودون أن يبدو ساعيا إلى أحد .. إلى أن تحقق فعلا زواج ابنته .. وإن كان قد طلب أن تستمر ابنته فى استكمال تعليمها الجامعى بعد الزواج .. ولكن لم تكن فى نياته الإصرار على هذا الطلب ..

ولكن ..

هل نسى عبد الجليل زوجته وهو يتخذ كل هذه الإجراءات انتظارا للموت .. زوجته التى عاش معها العمر كله حتى إنه لم يعد يذكر العمر الذى قضاه قبل أن تجمعهما الحياة .. هل نسيها .. أبدا .. إنه قطعا سيموت قبلها فهو أكبر منها بست سنوات .. وإن كان يقال عنه إنه لا يزال معافى وفى صحة سليمة كاملة فهى أيضا مستكملة الصحة والعافية ولا تعانى مما يمكن أن يهدد بأن تموت قبله .. وهو سيتركها فى رعاية الابن والابنة .. إنهما يحبان أمهما إلى حد أنه كان يقارن أحيانا بين مدى حبهما له وحبهما لها .. وكان يرجح دائما أنهما أقرب إلى أمهما منهما إليه .. ورغم ذلك فهو لا يريد أن يتركها تحت رحمة أى مخلوق حتى لو كان ابنها أو ابنتها .. لذلك فقد أقدم على إجراء خاص بزوجته .. فقد دفع الولد والبنت إلى توقيع توكيل عام لأمهما عنهما فى التصرف فى كل ما سيتركه لهما .. أى ولو أنه لن يترك شيئا باسمها إلا أنها سيكون لها حق التصرف فى كل ما يتركه .. إن التوكيل يعطيها حقا قانونيا لكى تعيش كأنها تملك ..

حرة فى الأمر والنهى .. دون أن تحتاج إلى رحمة وشفقة ابنها أو ابنتها .. وذلك علاوة على قيمة المعاش الذى تصرفه له الحكومة .. إن نصيبها مستمر فى هذا المعاش حتى آخر أيامها .. أى حتى تلحق به ويعود مسئولا عنها فى الجنة .. بعكس ابنها الذى وصل إلى سن الواحد والعشرين وانتهى حقه فى أى نصيب من المعاش .. وابنتها لم يبق لها إلا عام أو عامان وتفقد حقها فى أى نصيب من المعاش ..

إنه مطمئن على حياة زوجته وحياة كل أفراد العائلة من بعده ..

* * *

واستمرت هذه الحياة بعبد الجليل منذ إحالته على المعاش .. وهو لا يزال يعيش معافى وافر الصحة إلى أن وصل إلى السبعين من عمره .. وهو دائما فى انتظار الموت ولكنه لم يعد يخافه .. فقد وهبه الله القدرة على تنظيم ما يخصه من الحياة بعد أن يتركها وسيموت وهو مطمئن .. كأن دنياه ستستمر محتفظة بفضله مدينة له بقدرته على تنظيم مصير أفرادها ..

إلى أن التقى يوما بابن عمه لقاء صدفة .. فقد قضى ابن عمه حياته فى الإسكندرية .. ولذلك كان متباعدا عنه .. ويغيب كل منهما عن الآخر سنوات .. ولا يلتقيان إلا صدفة أو فى مناسبة عائلية عابرة .. بل إنه لم يعرف ابنه بعد أن التقى به إلا بعد أن قدم إليه نفسه .. وصاح به بدوافع شوق عائلى مخلص :

— كيف حال والدك ..

وقال الابن مفتعلا رنة الحزن : — الله يرحمه ..

وصاح عبد الجليل مذعورا :

— هل مات .. متى ؟

وقال الابن وابتسامته الهادئة لا تزال معلقة بين شفتيه :

— منذ أسبوعين ..

وعاد عبد الجليل صائحا كأنه يقاوم صدمة عنيفة :

— ولكنى لم أقرأ الخبر فى صفحة الوفيات ..

وقال الابن وهو يتنهد فى افتعال :

— لم تمكننا الظروف من نشر الخبر .. فقد توفى أبى رحمه الله فى الفجر واضطررنا إلى تشييع الجنازة فى نفس النهار .. فلم يكن لدينا الوقت لنشر الخبر فى صفحة الوفيات حتى نجمع المشيعين ..

ولوى عبد الجليل شفتيه فى سخط عنيف وهو ينظر إلى الابن فى لوم ثائر كأنه يحتقره ويقاوم حتى لا يصفعه أو يبصق فى وجهه .. وابتعد عنه بسرعة دون أن يلقى عليه بكلمة عزاء .. فحتى لو كان أبوه قد مات بعد أن انتهت طباعة صفحة الوفيات فى الصحف فقد كان يستطيع أن ينشر خبر الوفاة فى صحف اليوم التالى ليخلد والده ويسجل أفضاله .. بل كان يستطيع أيضا تأجيل موكب الجنازة إلى اليوم التالى حتى لا يحرم أباه من المشيعين الذين يحيطونه بالترحم عليه وتأكيد إحساسهم بخسارة الدنيا بفقده ويوقفون الحركة فى كل الشارع تكريما له ..

إن عائلة المرحوم لم تضطر إلى عدم النشر فى صفحة الوفيات .. إنما انتهزت عذرا تحتج به حتى توفر على نفسها دفع ثمن الإعلان فى صفحة الوفيات ..

وقد كان عبد الجليل قبل أن يحال إلى المعاش ويعيش فى انتظار الموت لا يهتم بقراءة صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام .. بل كان يترك هذه الصفحة لتقرأها زوجته وتبلغه عمن مات ممن يعرفهم .. وقد يشترك فى

السير فى الجنازة أو يكتفى بإرسال برقية عزاء .. أو يتغاضى عن تكليف نفسه أى جهد لتأدية العزاء .. ولكنه بعد أن أصبح فى انتظار الموت يحرص كل صباح على قراءة صفحة الوفيات بنفسه .. ويتعمد قراءتها غالبا قبل أن يقرأ أى صفحة أخرى فى الجريدة .. ولا الصفحة الأولى .. إن الصفحة الأولى أصبحت هى صفحة الوفيات .. وكان حريصا على أن يقوم بواجب العزاء والاشتراك بالسير فى الجنازات كلما قرأ عن وفاة أى مرحوم يعرفه .. حتى لو كان يعرفه من بعيد ولا يجمعه به أى شأن من شئون الحياة .. وكان يجد نفسه بلا تعمد يتطلع بين المشيعين فى كل جنازة .. كأنه يحصى عددهم واحدا واحدا .. هل هى جنازة مزدحمة أو جنازة فارغة .. إن عدد المشيعين يعلن قيمة المتوفى ومكانته بين الناس عندما كان حيا .. وهو يريد لنفسه عندما يموت أن تشيعه جنازة مزدحمة .. عشرات .. بل مئات من المشيعين .. فإن اتصاله خلال حياته يشمل المئات .. وربما كان حرصه على السير فى كل هذه الجنازات هو سعيا لإقناع أهل كل متوفى بأن يردوا له الجميل ويسيروا فى جنازته .. وعلى كل حال فإن الجنازة لا يمكن أن تستكمل عظمتها إلا بنشر خبر الوفاة فى صفحة الوفيات وبحروف ضخمة بارزة .. وهو إلى الآن لم ينشر اسمه أبدا فى أى جريدة .. لا لأنه لا يستحق نشر اسمه .. فهو قطعا له فى الحياة أفضال تستحق أن ينشر اسمه كل يوم وفى كل صفحة .. ولكنها أفضال محصورة فى داخل وظيفة حكومية لا تهتم ولا تحس بها الصحف .. إنما اسمه يجب أن ينشر بارزا على قمة عمود من أعمدة صفحة الوفيات .. هذا أقل ما يستحقه من تكريم لذكرى حياته ..

ولكن من سيتولى نشر اسمه وتسجيل نعيه بكلمات فخمة أو على الأقل

محترمة فى صفحة الوفيات ..

لقد كان معتمدا على ابنه .. وأقل ما يرد به الابن أفضال أبيه عليه هو تكريمه فى صفحة وفيات الأهرام ..

ولكن من يدرى .. قد يموت كما مات ابن عمه فى الفجر وينتهز ابنه الفرصة فيشيعه قبل الإعلان عن وفاته فى صفحة الوفيات .. حتى يوفر لنفسه المبلغ الذى يضطر لدفعه ثمنا للإعلان .. كما فعل ابن ابن عمه .. وقد تقر زوجته نفسها ذلك توفيرا للنفقات لصالح أبنائها .. أو قد يتفضلون عليه ويشيعونه فى صفحة الوفيات بسطر أو سطرين كأنه نكرة من النكرات لا تستحق أكثر من ذلك ..

لا ..

يجب أن يسجل نعى نفسه بنفسه .. وأن يضمن نشر هذا النعى بحروف بارزة على رأس عمود من أعمدة صفحة الوفيات بجريدة الأهرام .. هذه هى طبيعته فى تحمل مسئولية الحياة بعد أن يموت ..

وقضى أياما وهو جالس يكتب نعى نفسه بنفسه .. إلى جنة الخلد .. وفاة عبد الجليل بسيونى .. مدير إدارة الحسابات بوزارة المالية سابقا .. والذى كانت الإدارة على عهده فى منتهى الانضباط والقدرة على تحقيق الرخاء لمصر كلها .. وهو والد كل من .. و .. و .. » وسجل أسماء كل أفراد عائلته من أولها إلى آخرها .. حتى الذين لا يعرفهم شخصيا .. بل إنه يعلم أن أحد فروع عائلته تمتد حتى تصل إلى سعد زغلول باشا .. فلم ينس أن يسجل اسمه بين الأسماء .. »

وراجع النعى الذى كتبه لنفسه مرات .. وفى كل مرة يضيف كلمة أخرى أو اسما آخر .. إنه يسجل كل هذه الأسماء حتى يضطرهم إلى السير

فى جنازته ويشد إليها معارفهم فتزداد ازدحاما وفخامة وأبهة .. ثم حمل الأوراق التى تحمل النص الذى وصل إليه وذهب بها إلى مركز إعلانات صفحة الوفيات فى الجريدة .. وقال للموظف المختص إنه يريد أن يحجز مساحة إعلان عن وفاته ويدفع قيمتها نقدا مقدما قبل أن يموت .. ورغم دهشة الموظف فقد رحب بعرضه .. ما دام سيدفع الثمن مقدما .. وقد أخذ منه نص النعى وبدأ يحسب له حسابه .. إن السطر الواحد بالأحرف الصغيرة والذى يجمع خمس كلمات ثمنه ستة جنيهات .. والسطر بالأحرف الأكبر الذى يجمع أربع كلمات ثمنه اثنا عشر جنيها .. والسطر بالأحرف الكبيرة جدا الذى لا يجمع سوى ثلاث كلمات ثمنه ثمانية عشر جنيها .. وذلك علاوة على ١٨٪ من ثمن كل سطر تدفع كضريبة دمغة .. وقال له الموظف بعد أن انتهى من تعداد كلمات النص :

— إنه نعى طويل يصل إلى اثنين وخمسين سطرا .. ويكلفك غاليا .. إلا إذا اختصرت منه ..

وقال عبد الجليل فى حدة :

— إنى لست حرا فى اختيار هذه الكلمات .. تقاليدنا العائلية تفرض نشر كل كلمة منها .. ولا أستطيع أن أختصر ولا كلمة ..

وقال الموظف كأنه يشفق عليه :

— إذن ينشر بالأحرف الصغيرة توفيرا للثمن ..

وقال عبد الجليل كأنه تلقى إهانة لمجرد التفكير فى التوفير من ثمن نشر نعيه .. إنه غال ونعيه يجب أن ينشر بأغلى ثمن :

— لا يهم الثمن .. وسيدفع مقدما ..

ولكنه أخذ يجادل الموظف إلى أن اتفق معه على أن ينشر اسمه فى النعى

مضافا إليه سطور المقدمة بأكبر الحروف .. والنصف الأول بحروف أصغر .. وما تبقى ينشر بأصغر الحروف .. وعاد الموظف يعد الكلمات .. إنها تستغرق خمسين سطرا .. وثمن الإعلان يصل إلى خمسمائة وخمسين جنيها ..

وتركه عبد الجليل وذهب إلى البنك وسحب المبلغ من الرصيد الذى كان يحتفظ به لورثته .. ثم عاد إلى مركز صفحة الوفيات بجريدة الأهرام .. ودفع المبلغ المطلوب كله .. وأخذ به إيصالا .. وهو يقول للموظف ..

ـــ من يعود إليك بهذا الإيصال بالنعى ينشر فورا ..

وقال الموظف وهو ينظر إليه مشفقا :

ـــ طبعا ..

وقال عبد الجليل :

ـــ ويجب أن ينشر على رأس عمود من أعمدة صفحة الوفيات ..

وقال الموظف وهو أكثر إشفاقا :

ـــ اطمئن ..

وحتى يطمئنه أكثر أخذ الموظف ورقة ما وصورها فوتوغرافيا على ورقة أخرى .. وترك له الأصل .. قائلا :

ـــ سنحتفظ بكلمات النعى حتى نبدأ فورا فى جمع حروفه بعد أن يصلنا الخبر ولو تليفونيا .. أمد الله فى عمرك ..

وعاد عبد الجليل إلى عائلته مرتاحا مزهوا بعبقريته فى استكمال كل ما يريده بعد موته .. وجمع حوله زوجته وابنه وابنته وأبلغهم مبتسما فى فرح بما اتخذه من إجراءات تغنيهم عن كل المتاعب التى يمكن أن تواجههم

بموته .. وهم يقاطعونه رافضين انتظار موته .. ويؤكدون له طول العمر .. وصاحت ابنته ..

— أنت لا تزال فى عز شبابك يا بابا ..

وهو يبتسم مطمئنا إلى كل ما سيجرى بعد موته .. وأعطى إيصال إعلان النعى فى صفحة الوفيات إلى زوجته لتحتفظ به إلى أن تأتى ساعته فتعطى هذا الإيصال إلى ابنه ليذهب به فورا وقبل أى شىء آخر إلى جريدة الأهرام لنشر النعى .. وهم يتبادلون نظرات الإشفاق عليه ويقولون :

— حاضر ..

* * *

والعمر يمتد به إلى أن وصل إلى الخامسة والسبعين .. محتفظا بعافيته وسلامة صحته .. ولكن الحياة من حوله بدأت تتغير .. إن زوج ابنته انتقل إلى العمل فى الكويت وأخذ زوجته معه .. وبعد شهور أرسلت ابنته خطابا إلى أخيها تدعوه هو الآخر إلى الكويت بعد أن وجدا له عملا هناك بمرتب كبير مغر .. لقد أصبح هو وزوجته وحدهما فى مصر .. وبدأت نوبة من الحيرة تنتابه .. من سيذهب بإيصال إعلان الوفاة إلى جريدة الأهرام .. وأخذ من خلال حيرته يلقن زوجته كيف تذهب بالإيصال إلى موظف قسم الإعلانات .. وماذا تقول له .. ولا تنسى أن تحمل معها النص الذى كتبه عن نفسه خوفا من أن تكون النسخة التى يحتفظ بها الأهرام قد ضاعت ..

إلى أن فوجىء ذات صباح بزوجته وقد ماتت .. لقد توقف قلبها رغم أنها كانت فى تمام الصحة والعافية مثله .. وهدته المفاجأة .. أحس أن

حياته كلها قد ضاعت منه ولم يعد يحس بأنه لا يزال يعيش .. ولكنه لم ينشر نعى زوجته فى صفحة الأهرام .. توفيرا للنفقات واحتفاظا بما بقى من مال للورثة .. واكتفى بإرسال برقية إلى ابنه وابنته .. وقد كانت جنازة زوجته لا تجمع إلا بضعة أفراد من الأقارب وسكان العمارة .. حتى الابن والابنة لم يلحقا بها ولم يعودا من الكويت ليتلقيا العزاء فى الأم إلا بعد أن شيعت جنازتها بأيام ..

وقد حاول إقناعهما بالبقاء بجانبه فى مصر .. إنه سيلحق بأمهما قريبا فلينتظرا إلى أن يشيعا جنازته حتى لا يغيبا عنها كما غابا عن جنازة أمهما .. ولكنهما لا يستطيعان البقاء .. إن مطالب الحياة تفرض عليهما أن يعودا إلى الكويت .. ويلحان عليه أن يأتى ليعيش معهما هناك .. وعندما أصر على الرفض وعداه بأن يعودا إليه فى إجازة الصيف .. ويؤكدان له أنه سيعيش .. وأنه فى تمام الصحة والعافية وأقوى من الموت .. مد الله فى عمرك يا بابا ..

والحيرة تشتد به .. لمن يعطى إيصال نشر إعلان الوفاة حتى يذهب به إلى جريدة الأهرام .. إنه متباعد عن كل أقاربه وكل أصدقائه .. ليس بينهم من تجمعه به أى ألفة خاصة .. وليس بينهم من يطمئن إلى أنه سيحقق له مطالبه وتعليماته .. ربما كان من الأجدى أنه يعطى الإيصال لعم سليمان بواب العمارة .. إنه يتعامل معه منذ عشرات السنين وبينهما ألفة .. أو ربما الأجدى أن يعطيه لأم محمد التى تخدم العائلة وتقيم بينهم منذ شبابها .. وابنها محمد تربى وسط العائلة ولا يزال يتردد على أمه دائما .. وهو يبدو شابا نشيطا ذكيا على خلق سليم .. ولا شك أنه يستطيع أن يحمل الإيصال إلى جريدة الأهرام ويحقق له كل أمانيه ..

وهو لا يزال حائرا لا يستقر على قرار ولا يتخذ أى إجراء .. وقد هدته حيرته حتى أصبح يعيش راقدا فى فراشه .. ليس مريضا ولكنه مهدود .. ولا يستطيع أن يطمئن على نشر اسمه فى صفحة الوفيات .. ولا أن يشيع فى جنازة مزدحمة تحييه وهو فى طريقه إلى مثواه ..

N-R-A

الحلال أرخص من الحرام

(١)

كان يقال عن منصور عبد المجيد أن عقله « كمبيوتر » .. أى عقل كأنه آلة حسابات يحسب كل ما فى الحياة بالأرقام .. وكل خطوة يحسبها قبل أن يخطوها .. كم تكلفه وماذا تحقق له .. وحتى عندما يأكل يحسب أنواع وقيمة الفيتامينات فى صنف ما يأكله .. وقيمة ما يمكن أن يضيفه إلى هذا الصنف ليرفع من قيمة ما فيه من فيتامينات .. ويرفع من قيمة متعة مذاقه عندما يأكله .. ثم كم سيكلفه إعداد هذا الصنف من إنفاق .. وهل يوازى ما ينفقه ما سيعود عليه شخصيا من تزويد نفسه باستكمال الصحة والعافية .. وتزويدها بمتعة الأكل .. وحتى أحاسيسه العاطفية يحسبها كلها بعقلية الكومبيوتر .. الحب له أرقام حسابية .. والصداقة .. والكراهية .. وقد يحس يوما أنه ينجذب إلى فتاة .. وقد يصل به انجذابه إلى طريق الحب .. ولكنه يحسب حساب الخطوة قبل أن يخطوها .. ويجد أن هذه الخطوة نحو الحب لن تكون فى صالحه ولا تحقق أهدافه فيتغلب الكومبيوتر عليه بسرعة ويستطيع ببساطة أن يقاوم انجذابه ويبتعد عن الطريق الذى يؤدى به إلى الحب .. وقد تتجه عواطفه نحو كراهية شخص ما .. إنه لا يطيقه .. ولكن الكومبيوتر يبدأ فى وضع الحساب وينتهى إلى أن هذه الكراهية لن تفيده وليست فى صالحه .. ويستطيع الكومبيوتر أن يتغلب على عواطفه فيتخلص من هذه الكراهية أو يعيش فيها مستسلما .. وهو فى طبيعته ليس كريما ولا بخيلا .. ولكنه مستسلم للأرقام التى يضعها

له الكومبيوتر الذى يكمن فى عقله .. قد يدهش الناس وهو ينفق أمواله فى بذخ .. قد ينفق فى جلسة واحدة ألف جنيه .. لأن الكومبيوتر خرج بحساب أن هذه الجلسة تستحق ألف جنيه .. وفى جلسة أخرى قد يرفض إنفاق قرش واحد لأن الكومبيوتر قرر أن هذه الجلسة لا تستحق ولا قرشا واحدا .. إن يده لا تمتد إلى جيبه ليخرج منه القرش إلا بعد أن يطمئن إلى ما تعود به يده وتضعه فى جيبه .. والحياة كلها أرقام ..

ولا شك أن هذا العقل الكومبيوتر الذى يعيش الحسابات ولا يتحرك إلا بالأرقام قد حقق لصاحبه نجاحا هائلا فى أعماله .. لقد أصبح الآن مليونيرا مشهورا فى مصر كلها .. وإن كانت شهرته محصورة فى داخل أعماله .. وأقنعته حسابات الكومبيوتر بأن يحصر شهرته داخل أعماله ولا يحاول أن يفرضها على الحياة العامة بأن يشتغل فى السياسة ويرشح نفسه مثلا لمجلس النواب أو يحاول أن يكون وزيرا بين الوزراء كما يفعل كثيرون من رجال الأعمال الذين وصلوا إلى مستوى المليونيرات .. ولكن هذا العقل الكومبيوتر وصل به فى الوقت نفسه إلى أن تكون حياته الخاصة حياة عجيبة ..

لقد تزوج حتى اليوم سبع زيجات وأصبح يبحث عن الزوجة الثامنة .. ولم يكن لأى زوجة من زوجاته السبع أثر فى حياته .. بل لم تكن لإحداهن صورة واضحة فى المجتمع الذى يحيط به .. وإنما كان يتزوج وفقا لحسابات وأرقام تخص احتياجات حياته الخاصة جدا بعيدا عن عمله وعن المجتمع الذى يعيش فيه ..

وهو يذكر أول زواج له ..

كان لا يزال شابا فى الخامسة والعشرين من عمره .. ولم يكن يخطر على

باله أبدا أن يتزوج .. لم يكن فى حاجة أبدا إلى الزواج .. إنه بعد أن ترك بيت العائلة وأصبح يعمل ويحقق أرباحا وهو يعيش فى شقة خاصة مستقلا بنفسه .. ولا شيء ينقصه وهو مستقل هذا الاستقلال بحياته الخاصة .. بل إنه من هواة إدارة بيته بنفسه .. ويستطيع أن يضع نظاما محكما لكل ما يحتاج إليه البيت .. بل إنه كان يهوى الدخول إلى المطبخ بنفسه .. والنزول إلى الأسواق ليشترى اللحم والخضار ويتباهى وهو يعود إلى البيت حاملا بطيخة أو شروة برتقال .. إنه ليس فى حاجة إلى ست بيت حتى يفكر فى الزواج .. إنه رجل وست بيت ..

إلى أن التقى بمديحة .. إنها فى بداية شبابها .. جميلة .. مثيرة .. خفيفة الدم .. إنه يحس بمتعة لمجرد رؤيتها والحديث معها حتى بين الناس .. ووجد نفسه ينجذب إليها انجذابا صارخا .. ولكن هذا الانجذاب كان ينحصر فى أمل واحد .. وهو أن يصل إليها .. أن يأخذها بين أحضانه .. وقد حاول الكثير .. بل إن شهوة شبابه تحدت الكومبيوتر الذى يضع له الحسابات فبدأ يسرف فى الهدايا التى يقدمها لها .. كأنه يدفع الثمن مقدما .. ولكن مديحة رغم انطلاقها لم تكن تعطيه شيئا أكثر .. ربما كانت لا تكرهه ولكنها لا تحبه إلى حد أن تعطيه أكثر .. ربما لأنه ليس وسيما ويستطيع أن يستغل وسامته فى إغراء أى بنت كما يفعل كثير من الشبان فى إغراء البنات .. إنه يعلم عن نفسه أنه ليس وسيما وسامة زاعقة ولكنه ليس قبيحا فى صورة وجهه أو فى قوامه .. إنه شكل عادى بين الرجال وإن كان يميل إلى القصر وله كرش منفوخ قليلا لا يستطيع أن يزيل انتفاخه .. ورغم ذلك ظل يلاحقها ويلح عليها ويسرف فى هداياه .. إنها كلفته كثيرا دون أن يصل إليها .. إلى أن بدأت تصارحه .. إن الطريق

الوحيد إليها هو الزواج .. ربما كان ما يجعلها تقبل زواجه أنه من عائلة معروفة وأنه بدأ يُعرف بأنه استطاع أن يحقق بسرعة نجاحا فى أعماله .. إنه شاطر ..

ومضت أيام والكومبيوتر لا يكف عن الحسابات وتحديد الأرقام ..

لماذا لا يتزوجها ؟!

إن الزواج لن يكلفه إلا أن يدفع مهرا قد يصل إلى خمسمائة جنيه .. ومؤخرا للصداق يحدده قد يصل إلى خمسمائة جنيه أخرى .. وحلية يشتريها كشبكة مهما غالى فى اختيارها لن يدفع ثمنا لها أكثر من ألف جنيه .. أما حياة مديحة معه فى بيته فلن ترفع مصاريف البيت كثيرا .. إن ما يكفى واحدا يكفى اثنين .. وانتهت حساباته إلى أن الزواج يكلفه أقل ما يكلفه اتخاذ عشيقة بلا زواج .. الحلال أرخص فى تكاليفه من الحرام .. علاوة على ما يعطيه الزواج له من ملكية كاملة للفتاة التى تزوجها .. وهذا ما يجهله الشبان .. إنهم يتصورون أن الزواج يكلفهم أكثر من العشق .. أو أكثر من مطاردة البنات .. أبدا .. إن مديحة كلفته فى عام واحد أكثر من أربعة آلاف جنيه ثمن الهدايا وثمن استكمال مظاهر إغرائها .. ورغم ذلك لم يصل منها إلى شىء .. والزواج سيكلفه أقل ويصل به إلى كل ما فى مديحة ..

وتقدم للزواج من مديحة ..

وكان أهلها يعرفون حكاية سعيه وراء ابنتهم .. ومديحة لا تخفى عن أمها شيئا .. ومركز عائلته بالنسبة لهم وشهرته تدفعهم للموافقة فورا ..

وكل ما طلبه منصور أن يتم الزواج فى حفل عائلى ساكت ضيق محتجا بأن زوج ابنة عمه لم يمض على وفاته أكثر من ثلاثة شهور .. ولم تكن حجة

تكفى لإقناع العروس أو أهلها ولكنهم استسلموا .. وهو نفسه لا يكره الحفلات .. وليس منزويا عن سهرات الليالى الاجتماعية .. ولكن الكومبيوتر أقنعه بأن حفل الزفاف سيكلفه مبلغا كبيرا دون أن يعود عليه بشيء .. وهو يستطيع أن يستغل نصف هذا المبلغ فى قضاء أيام شهر العسل .. إنه لا يخرج قرشا من جيبه إلا بعد أن يحسب حساب ما يعود عليه منه .. ولو كان ما يعود إليه هو مجرد المتعة ..

وتزوج فى الشقة التى يقيم فيها بعد أن تولى بنفسه تجديدها وإعدادها لكل ما يحتاجه زوجان .. وقضى شهورا وهو فى منتهى المتعة .. والجمال .. والإثارة .. وخفة الدم .. وقد حدد لزوجته مسئوليتها منذ اليوم الأول .. إنها فقط مسئولية إمتاعه بنفسها .. أما باقى مسئوليات حياة البيت فهو الذى يتحملها .. لا يزال يتولى إدارة البيت .. ومحاسبة السفرجى الذى يقوم فى الوقت نفسه بعمل الطباخ .. ولا يزال يعود إلى البيت كل يوم وهو يحمل مشتريات السوق .. إنه لا يترك لها مسئوليات ست البيت .. فهو رجل البيت وأيضا ست البيت .. وحتى لم يترك لمديحة حق إقامة حفل تدعو إليه أفراد عائلتها أو صديقاتها إلا بعد الاتفاق معه .. وكان يوافق على كثير من الحفلات التى تطلب إقامتها .. ولكنه يجب أن يوافق أولا حتى يعتمد على الكومبيوتر الذى يضع له الحسابات .. وفى الوقت نفسه كان فى كل يوم بعد أن يخرج من البيت إلى عمله يترك لزوجته منتهى الحرية فى شغل وقتها .. إنها حرة فى الخروج من البيت بعد خروجه لتذهب لزيارة أمها أو أفراد عائلتها أو صديقاتها أو تذهب إلى السوق أو إلى النادى .. إنه يراعيها وينصفها بهذه الحرية .. فما دام قد خرج من البيت فلم تعد تزاول مسئوليتها الوحيدة وهى مسئولية إمتاعه .. ومن حقها أن

تشغل أوقاتها وتسلى نفسها حتى لا تعانى من الفراغ .. ووجودها فى البيت وحدها فراغ .. لأنها ليست مسئولة مسئولية ست البيت .. وهو يرحمها من الفراغ ولذلك يطلق حريتها ..

ولم يكن قد مضى عام واحد عندما بدأت متعته بزوجته مديحة تخفت وتذوب .. ولم تكن مديحة خلال هذا قد طرأ عليها أى بوادر حمل .. وهى تريد أن تنجب وأمها تكاد تجن فى انتظار أن تحمل ابنتها .. وقد صحبتها إلى طبيب مختص .. إنها سليمة .. كل ما فيها سليم .. إن زوجها منصور هو الذى يجب أن يذهب إلى طبيب .. ولكنه لن يذهب .. لا لمجرد عدم رغبته فى الاعتراف بضعفه ولكنه لا يريد أطفالا .. ولم يتمن أبدا أن يكون أبا .. بل كان أحيانا يخطر على باله احتمال الإنجاب وزوجته بين أحضانه .. فينتابه نوع من الذعر ويتعمد أن يتخذ حركات تحول دون أن ينجب .. ماذا يفعل بالأطفال .. إن الكومبيوتر يرفض أن يدخل فى حساباته حساب الأطفال ..

وتمضى الأيام ومتعته بزوجته آخذة فى الذوبان حتى ذابت كلها .. ولم يكن يفاتح زوجته بشىء مما يحس به أو يطمع فيه .. ولكنه بدأ يتخذ تصرفات تخفف عنه الملل والزهق .. فانتقل لينام لياليه فى حجرة النوم الأخرى بالبيت بعيدا عنها .. وحده .. ولم يعد يقضى ليالى بجانبها فى البلكون أو أمام التليفزيون كمقدمة للانتقال إلى الفراش .. بل لم يعد يبادلها هذه القبلات كلما خرج أو دخل .. وإذا وجد نفسه معها على مائدة الإفطار أو الغداء لم يجد موضوعا يتحدثان فيه .. لم يكن لهما إلا موضوع واحد وهو موضوع متعتهما أحدهما بالآخر .. لقد عودها على ألا يتحدث معها أبدا عن عمله أو عن مكتبه أو عما صادفه فى يومه ..

فقط الحديث دائما عما بينه وبينها من متعة .. وقد ذاب ما بينهما من متعة ولم يعد بينهما ما يفتح مجالا لحديث سوى تناقل الأخبار العائلية فى جفاء ..

ووصل إلى الاقتناع بأنه يجب أن يتركها .. إن الحياة الزوجية ليست مجرد مسئولية يفرضها المجتمع .. إنها متعة وهناء واستقرار .. وهو لم يعد يعيش متعة ولا هناء ولا استقرارا .. وهو ليس مقتنعا بأن يحتفظ بزوجته ويتخذ بجانبها عشيقة تستكمل له متعته وتخفف من ملله وزهقه .. ولا أن يتخذ معها زوجة أخرى .. ليس هذا قطعا من حكمة الزواج .. إن الزواج كالحب .. اكتفاء ومسئولية وهو لم يعد يكتفى بزوجته ويضيق بمسئوليتها .. ولعل الكومبيوتر يرفض أن يجمع بين زوجتين أو يتخذ لنفسه عشيقة .. يجب أن يطلق مديحة ..

وتم الطلاق بعد متاعب عنيفة بينه وبينها هى وأهلها .. وقد كان منصفا معها .. أعطاها كل حقوقها بل تعهد لها بأن يبقى مسئولا عن كل مطالبها إلى أن تتزوج رجلا آخر .. إنه إنسان .. ولكنها لم تطلب منه شيئا بعد طلاقها .. لقد تركته وهى تكرهه ..

* * *

وعاد وحيدا ولكنها وحدة لم تستمر شهورا إلى أن التقى بسعاد .. ولم يحاول مع سعاد أى محاولة كالتى كان يحاولها مع مديحة قبل الزواج .. ولكنه انتظر إلى أن تأكد من انجذابه إليها وإلى أن تغلبت عليه رغبته فيها ولهفته على امتلاكها كلها .. مع إيمانه بأن الحلال أرخص من الحرام .. وفاجأها بلا مقدمات قائلا فى بساطة :

ـــ هل نتزوج ؟

ودهشت سعاد .. ولكنه كان قد ازداد نجاحا فى عمله .. وازداد

ثراء .. وازداد شهرة فى مجتمعه .. وأصبحت الأحلام وصور الحياة تغرى أى فتاة بأن تتزوجه ..

وتزوج سعاد .. وأيضا رفض إقامة حفل زفاف عام .. وكانت حجته هذه المرة أنه سبق له الزواج ولم يعد من حقه أن يفرض على الناس فرحتهم بزواجه الثانى .. لقد أصبح زواجه أمرا متعلقا بحياته الخاصة بعيدا عن الناس .. وهو لم يغير شيئا فى بيته لاستقبال العروس الجديدة إلا أغطية الفراش .. إن البيت لا ينقصه شىء ..

وعاش مع سعاد كما عاش مع مديحة .. وإن كانت سعاد أهدأ وأضعف وليست فى خفة دم مديحة .. وانتابه الشبع منها وأيضا بعد عام واحد دون أن ينجب منها .. وطلقها .. وكان طلاقها أسهل فهى وعائلتها أرق ترفعا من عائلة مديحة ..

* * *

وعاد إلى وحدته متفرغا لعمله ليحقق نجاحا أبعد ويصل إلى الملايين ..

وحاول أن يعدل عن أسلوب حياته الخاصة .. إنه لن يتزوج مرة ثالثة .. حتى لو كان الزواج أرخص فمتاعبه أكثر .. وإذا كان من طبيعته اعتبار المرأة مجرد متعة .. فلماذا تكون زوجة .. وهو الآن يمتلك الكثير .. إنه مليونير .. لا يهمه ما يكلفه الحرام من مال ما دام فى حاجة إليه ..

وكان مجتمعه .. مجتمع رجال الأعمال .. قد اتسع وأصبحت لياليه تضم نوعا من النساء ليست لهن مظاهر الاحتراف ولكنهن يعطين أنفسهن مع الاحتفاظ بالاحترام المتبادل .. وبدأ يستجدى هذا النوع من النساء ليخفف من وحدته .. ولكن مستحيل .. إن عواطف المعروفة فى المجتمع الراق كلفته الكثير .. ربما أكثر من عشرة آلاف جنيه حتى تعطيه ساعات

من الليل .. والسيدة إيناس أعطته ساعات بعد أن عاد إليها من رحلة قام بها إلى باريس يحمل لها ما طلبته .. وكانت تطلب فى أسلوب ساخر كأنه لا يهمها أن يلبى مطالبها أو لا يلبيها .. وقد لباها كأنه يتحداها ويفرض عليها الاعتراف بسلطانه .. ورغم ذلك أخذت دون أن تعترف له بأى شىء ودون أن تعطيه أكثر من هذه الساعات .. رغم أنه دفع لشراء مطالبها الكثير .. آلاف الدولارات .. إن هذا النوع من النساء يغطى عورته بنوع من الترفع والكبرياء المصطنع ..

وعقله الكومبيوتر لا يزال يلح عليه ويفكره بأن الحلال أرخص من الحرام ويعطى أكثر .. أى يجب أن يتزوج .. إلى أن التقى بسهام .. وقد جذبته مع قدر كبير من الاحترام .. إنها من عائلة أكبر من عائلته .. ووالدها أنجح منه فى صفقات الأعمال ويفوقه ثراء .. وهى مطلقة كما أنه مطلق .. وليس لها أبناء كما أن ليس له أبناء .. إنها ظروف مشتركة يمكن أن تجمعهما فى زواج .. وقد بدأ بأن استطاع أن يشترك مع والدها فى صفقة واحدة ناجحة .. ثم تقدم إليه يطلب يد ابنته .. طلبها من أبيها لا من نفسها .. وقد ترددت سهام طويلا فى قبوله كزوج وكانت أقرب إلى الرفض .. ولكن والدها كان قد أصبح فى منتهى الإعجاب بذكاء منصور وشطارته فأخذ يلح على ابنته حتى قبلت الزواج .. ولم يتردد منصور فى دفع أعلى ما يمكن أن تكلفه زيجة .. إنها زيجة محترمة ومشرفة .. وكان بعد أن ارتفع ثراؤه قد ترك بيته وانتقل إلى بيت جديد .. ڤيلا رائعة فى ضواحى القاهرة أقرب إلى أن تكون قصرا .. وعهد إلى أرقى وأشهر مهندس ديكور بتأثيثها فأصبحت كأنها معرض لآخر ما وصل إليه فن قطع الأثاث والتحف .. وهو بيت لم تدخله زوجة أخرى قبل سهام ..

وأتم الزواج بلا حفل .. فكلاهما مطلق وليس مفروضا أن يقيما حفلا لزواجهما .. ولكن سهام لا يمكن أن تعيش كمجرد متعة لزوجها .. بل لا يمكن أن تقبل أن تكون تحت أمر زوجها .. هو الذى يجب أن يكون تحت أمرها .. وهو لا شأن له بإدارة البيت وشئون الحياة الزوجية .. هى وحدها ست البيت .. وكل ذلك يخالف طبيعة منصور .. وبدأ النقاش يحتد بينهما منذ الأيام الأولى للزواج .. وأصبحت هى التى تجود عليه بنفسها إذا أرادت كأنها تتعطف عليه .. أو لا تجود عليه عندما تقرر أنه لا يستحق ولو مجرد لمسة على جسدها ..

ولم تكن قد مر سوى ثلاثة شهور عندما عاد إلى البيت ولم يجدها .. لقد هجرت البيت وتريد الطلاق .. هى التى تريد الطلاق وليس هو ..

واعتذر له أبوها بأن من المستحيل إقناعها بالعودة إليه .. وتم الطلاق .. وهو يحس كأنه خسر صفقة كان يبنى عليها آمالا كبيرة .. بل كانت سهام هى أول زوجة يتمنى أن ينجب منها .. إن ابنه منها لن يرثه وحده بل سيرث أيضا أباها .. أى أنه هو الذى سيأتى يوما ويضم شركات أبيها إلى شركاته بحكم الوراثة .. إنه مهزوم .. أول مرة يحس بمرارة الهزيمة ..

* * *

وعاش وحدته وهو يبحث عن الزوجة الرابعة .. ما ذنبه إذا تعددت زيجاته .. هذا حكم القدر الذى أقام طبيعته كإنسان ورسم حظه من الحياة ..

إلى أن التقى بأمينة .. إنها ابنة رفعت عوض الموظف فى شركته ، وكان قد بدأ موظفا صغيرا ولكنه ارتفع إلى أن أصبح يحمل مسئوليات

كبيرة .. وقد رأى أمينة عندما دعاه أبوها فى استجداء ليتشرف بزيارته على دعوة للعشاء .. إنها جميلة .. هادئة .. حالمة .. تتحدث كأنها تعزف على جيتار .. إنه يريد أن يجرب زوجة من هذا النوع .. ويحس بانجذاب إليها .. وانجذابه يشتد .. وبعد أيام استدعى أباها رفعت عوض إلى مكتبه وبدأه بحديث عن العمل ، ثم قال مبتسما كأنه يرفع الكلفة بينهما :

ــ لماذا لم تتزوج ابنتك حتى الآن . ؟

وقال رفعت وهو يتنهد وإن كان سعيدا برفع الكلفة بينه وبين منصور :

ــ إنها متعلقة بشاب أرفض أن أقبله زوجا لها .. وهى لا تزال مصرة عليه وترفض كل من يتقدم إليها غيره .. حتى وصلت الآن إلى الخامسة والعشرين من عمرها وهى لم تتزوج .. أنا مصر على رفضه وهى مصرة على ألا تتزوج غيره ..

وفكر منصور قليلا ثم قال :

ــ هل تستطيع أن تقدم لى هذا الشاب ؟

وقال رفعت فى دهشة :

ــ لماذا ؟

وقال منصور مبتسما :

ــ سأريحك منه .. واسمع كلامى ..

وجاءه هذا الشاب .. ممدوح ماهر .. إنه وسيم رشيق ولكنه لا يمثل شخصية جادة محترمة ولكنه يمثل شخصية فهلوى أقرب إلى الانحلال .. وعرض عليه منصور فورا وظيفة فى الشركة وقال كاذبا .. إنه سمع عنه من الأستاذ رفعت عوض الذى يهتم بمستقبله .. وفرح ممدوح فرحة كبيرة ..

فالمرتب مغر وهو لم يكن يحلم بأن يعين فى شركة محترمة وفى مركز محترم ..

بدأ منصور يتعمد أن يستدعيه كل يوم ويكلفه بمهام هو نفسه يعلم أنها مهام مظهرية لا قيمة لها .. إلى أن قال له بعد أيام :

ـــ لقد اكتسبت ثقتى بسرعة حتى إنى أكاد أعتبرك أخى الأصغر .. والشركة تعانى من مشكلة حساسة أعتقد أنك الوحيد الذى يمكن حلها .. فإنى لم أعد مطمئنا إلى إدارة مكتبنا فى نيويورك بأمريكا .. وأريدك أن تذهب إلى هناك وتبحث فى كل ما يجرى فى هذا المكتب وترسل إلى تقريرا وراء تقرير بكل ما تكتشفه .. هل تقبل ..

وانتفض ممدوح من الفرح .. إنه لم يكن يحلم أبدا بالوصول إلى أمريكا .. وإن كان يتخيل فى صباه أنه ذهب إلى هوليوود وضحك على إحدى الممثلات الأمريكان وأصبح دون جوان عالمى .. ووافق طبعا وهو يكاد ينحنى ليقبل يد منصور ..

وقبل أن يحدد ممدوح موعد سفره استدعاه منصور وحدثه قليلا عن العمل ، ثم قال كأنه فعلا يحادث أخاه الأصغر :

ـــ إنى أعلم أنك صديق عائلة رفعت عوض ، فما رأيك فى ابنته ..

ودهش ممدوح وقال وهو حائر :

ـــ إنها آنسة كاملة مهذبة ..

وقال منصور وهو يدعى التردد :

ـــ لقد قررت أن أطلبها لأتزوجها .. فإنى أعانى الوحدة .. وأريدك أن تفاتح أباها فى الموضوع تمهيدا لى ..

وفغر ممدوح فاه من المفاجأة ثم تماسك سريعا وقام على عجل وهو يقول :

— حاضر ..

وكان هذا هو التخطيط الذى وضعه منصور للوصول إلى أمينة .. إما أن يقنع حبيبها بأن يتركها له ، وإما أن يحرمه من السفر إلى أمريكا ويطرده من الشركة .. وقد نجحت الخطة .. وسافر ممدوح إلى أمريكا بعد أن أعلن أمينة بأنه لن يتزوجها بل ويحاول إقناعها بأن تتزوج منصور .. أما أبوها فلم يكن يستطيع أن يرفض لمنصور طلبا .. إنه ولى نعمته والمسيطر على مستقبله .. واضطرت أمينة إلى الاستسلام كأنها تنتحر .. وتزوجها منصور ..

وكان هذا الزواج يمكن أن ينتهى بعد عام واحد .. فالحياة بين الزوجين ليس فيها أى إحساس .. حتى وهو يحتضنها يحس كأنه يحتضن وسادة خالية فارغة .. ولكنه تحمل عاما آخر من أجل خاطر أبيها .. ثم طلقها بعد أن قال لها :

— إنى أعلم أنك كنت تحبين ممدوح .. وسأستدعيه لك من أمريكا لتتزوجيه إن كنت لا زلت تقبلينه زوجا ..

ولم ترد أمينة بعد أن أصبحت تعيش معه فى صمت ..

وطلقها بعد أن دفع تعويضا كافيا لمراضاة أبيها .. ولكن ممدوح لم يعد من أمريكا .. لقد ترك العمل لحساب منصور وظل فى أمريكا يعمل لحسابه ..

* * *

وكانت هذه هى الزوجة الرابعة ..

أما الخامسة فكانت حكايتها غريبة على قدر ما هى بسيطة ..

(٢)

وقد وجد منصور عبد المجيد زوجته الخامسة فى أمريكا ..

كان فى أمريكا بعد أن اتسعت أعماله هناك وأصبح يسافر إليها أكثر من مرة كل عام .. والتقى بليزا فى دعوة أقامها جونسون مدير إحدى الشركات التى يتعامل معها .. إنها شقيقة صاحب الدعوة .. وهى مرحة .. لا تكف عن التهريج والتنطيط وهى تراقصه .. رغم أنها تبدو كبيرة فى السن .. ولعلها أكبر منه .. فهو الآن فى الثانية والأربعين من عمره ولعلها اقتربت من الخمسين فى عمرها .. وقد تعمد أن يشبع مرحها .. وكان يجيب على كل سؤال توجهه إليه عن مصر إجابات هزلية تطلق وراءها ضحكات صاخبة .. بل قام يراقصها وترك لها حرية التنطيط إلى آخرها .. وقرب انتهاء الحفل سألها أن تحدد له موعدا للقاء .. وقال ضاحكا :

— أنت وأنا وحدنا ..

وفرحت فرحة ضاحكة وحددت له موعدا ..

وكان حتى هذا اليوم لم يقرر شيئا بالنسبة لليزا .. إنه فقط يريد أن يكسب أخت مدير الشركة ليستغلها فى تسهيل أعماله .. ولكنه بعد أن تعدد لقاؤه بها بدأ ينتابه إحساس بالمغامرة .. لماذا لا يتزوج أمريكا .. أى يتزوج ليزا .. ولم يطرأ على باله المبدأ الذى يؤمن به والذى يرفع شعار .. الحلال أرخص من الحرام .. فقد فهم من شخصية ليزا أنها مستعدة أن تعطى أى شىء مجانا .. سواء الحلال أم الحرام .. ولكن كان ما يطرأ على باله هو أن يقيم علاقة شرعية مع أمريكا .. إن السوق الأمريكى أصبح هو السوق الأقوى بالنسبة لمصر .. بل إن الديون والهبات التى تجود بها أمريكا

على مصر أصبحت توزع فى مصر على شركات القطاع الخاص على أن يستغلوها فى السوق الأمريكى .. وقد حصل على مبالغ من هذه الديون .. وربما استطاع أن يستغل نفوذ أخى ليزا ليحصل على مبالغ أكثر وليصل إلى أسواق أوسع وخصوصا أسواق الأسلحة .. إنه لو استطاع أن يصل إلى عمليات بيع الأسلحة لتضاعفت ملايينه وأصبحت بلايين ..

ووقف ملتصقا بليزا كأنه واقف أمام آلة من آلات القمار التى تسقط فيها قطعة من النقود وتشد ذراعها فإما أن تسقط منها عشرات الدولارات أو لا يسقط منها شىء .. إنه يقامر بليزا .. وقال لها بهذه البساطة المرحة التى تعودا على أن يتحدثا بها :

— هل نتزوج ..

وصرخت ليزا فى مرح وقالت من خلال ضحكتها المرحة :

— إن آخر زوج كان لى مات منذ سنوات فى ڤيتنام .. ومن يومها لا أجد أحدا أضايقه وأعذبه .. وأحب أن أعذبك .. إنى أريد أن أرى مصر وأعيش فيها ..

وفى اليوم التالى تزوجا زواجا مدنيا .. وأقام لها أخوها حفل استقبال قدمه فيها إلى كثير من الشخصيات التى لها قيمة فى مجال الأعمال .. إن أخاها لم يبد رأيا فى هذا الزواج .. إنه فقط يقوم بالواجبات العائلية الرسمية .. كما تنازل لهما عن بيت من بيوت العائلة يقيمان فيه إلى أن ينتقلا إلى مصر ..

وقد لاحظ منصور منذ الأيام الأولى أن ليزا لا تطيق الاستماع إليه وهو يتحدث عن عمله .. ولا تقبل أن يكلفها بأى مهمة فى أى تخطيط يضعه .. إن الحياة معه بالنسبة لها هى مجرد قطع الوقت وملء الفراغ ..

إلى أن قالت له بصراحة :

ـ لا تتعبنى وتصدع رأسى بالحديث عن أعمالك .. إنها خاصة بك .. كما إنى لن أتعبك وأصدعك بما يخصنى .. إنها تحدد مسئوليته بإمتاعها كما كان هو يحدد مسئوليات زوجاته السابقات بإمتاعه .. وقد يحقق لها المتعة ولكنه لا يجد فيها متعة .. إنها فى عمرها لا يمكن أن تكون امرأة ممتعة ..

أما أخوها رجل الأعمال الخطير فهو يلتقى به دون ترحاب صادق وغالبا فى مناسبات عائلية .. ويستمع إليه طويلا وقد يصارحه بآرائه ونصائحه .. ولكنه عجز أن يشده إلى المساهمة معه فى مشروع أو حتى مساعدته فى مشروع .. حتى يئس منه وبدأ يحاول الاعتماد على الشخصيات الأخرى التى عرفها عن طريق ليزا وجونسون .. ولكنه لم يصل إلى شىء ولم يحقق شيئا من أحلامه .. لقد خسر لعبة القمار .. ولم تسقط عليه آلة القمار ولا مليما ..

ورغم ذلك احتمل .. وعاد إلى القاهرة وليزا معه .. ربما أراد أن يتباهى أمام الناس فى مصر بأنه تزوج أمريكا .. وكان المفروض أن يعقد مع ليزا عقد زواج مصرى شرعى بجانب العقد الأمريكى حتى يؤكد الزواج .. ولكنه لم يفعل .. وليزا لم يخطر على بالها شىء من هذه التفاصيل .. وهى منذ وصلت إلى مصر وهى متفرغة للسياحة .. تريد أن تتفرج على كل مصر وتشاهد كل قطعة تركها الفراعنة .. وكان يتركها تسيح وحدها .. وسافرت حتى الأقصر وأسوان وحدها .. وهو لا يحس حتى بمجرد انتظارها .. إنه يتركها حرة وكلما عادت إليه دعا أصدقاءه ليشهدهم على أنه تزوج أمريكا ..

ولم يكن قد مر أكثر من خمسة شهور على زواجهما عندما عادت إليه ليزا بعد رحلة من رحلاتها السياحية وقالت له :

ـــ أعتقد أنى تفرجت على كل مصر وما فى مصر .. ولم تعد لى حاجة للبقاء فى مصر .. سأعود إلى أمريكا وأنتظرك إلى أن تستطيع أن تأتى إلىّ .. إن لك أعمالا كثيرة هناك وستتردد علىّ كثيرا ..

وقال وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـــ إن تقاليدنا فى مصر لا تسمح بأن تترك الزوجة زوجها أبدا وتسافر وحدها..

وقالت وهى تضحك معه :

ـــ يقال عن مصر إنها بلد عاطفى .. ويجب أن تقدر أن فراق الجسد لا يعنى فراق الروح .. ومهما ابتعدنا عن بعض بأشخاصنا فنحن فى لقاء دائم بروحينا ..

وقال فورا :

ـــ أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعيش الحب دون أن نتقيد بهذه الحبال التى يشدنا بها الزواج .. حتى يكون الحب حرا ..

وفهمت وقالت دون أن تتغير لهجتها :

ـــ أنت على حق ..

وذهبا فى اليوم التالى إلى السفارة الأمريكية وسجلا إلغاء عقد الزواج الذى تم فى أمريكا .. وتركته وعادت إلى بلدها ..

إنه لم يحبها أبدا .. ولا حتى جذبته كامرأة .. ولكنها كانت مجرد لعبة من ألعاب القمار وخرج منها خاسرا .. ورغم ذلك فهو كلما سافر إلى أمريكا تعمد لقاءها .. وتعمد أن يقبّل اللعبة الخاسرة قبلات باردة ..

***

وكانت ليزا هى الخامسة :

أما السادسة .. بثينة .. فقد كانت أخته الأكبر منه هى التى دفعته إليها ودفعتها إليه .. فعلى غير عادتها بدأت أخته تتردد عليه كثيرا .. وكل حديثها معه عن الزواج .. وكانت تحلل له أسباب طلاقه المتكرر من زوجاته .. وتؤكد أن الطلاق كان بسبب أنه لم يتزوج أبدا زواجا عائليا كاملا .. أى تتولى العائلة البحث له عن عروس .. وتقوم العائلة بكل الإجراءات والمظاهر العائلية التى تحيط بالزواج .. حتى يكون زواجا لتكوين عائلة لا مجرد زواج رجل أعجب بفتاة واشتهاها .. وقالت له إن سمعته أصبحت فى لون الطين الأسود القذر من كثرة زيجاته .. ولكنها ستحاول أن تنظف سمعته وتعيد ثقة العائلات فيه كزوج وتختار له الزوجة التى يعيش بها ومعها إلى أن يموت ..

ووافق منصور أخته على كل ما قالته بلا مبالاة .. إنه الآن لا يريد الزواج ولكنه قد يتزوج بعد أن يرى المرأة التى ترشحها له أخته .. إنه لم يكن يتزوج إلا بعد أن تشده إلى الزواج فتاة يراها ..

وجاءته أخته بعد أيام وقالت له إنها وجدت له الزوجة .. بثينة .. وقد بذلت المستحيل حتى يرضى أهلها به بعد أن نظفت سمعته الملوثة .. وهى صغيرة بالنسبة له .. إنها فى الثالثة والعشرين .. ولكن هذا أفضل له لأنه يكون كأنه يحمل مسئولية تربيتها وتشكيلها فى الصورة والشخصية التى يريدها ويمكن أن تريحه .. وهى لم تتم تعليمها وتتخرج فى الجامعة كبنات هذه الأيام فعائلتها عائلة محافظة لا تلقى ببناتها فى الجامعات بين الشبان .. وهذا أيضا أفضل له حتى لا تعتمد إلا على أهلها ثم على زوجها .. كما أنها عائلة ليست غنية .. وهذا أفضل له حتى تبقى العروس وعائلتها كلها فى

حاجة إليه ومتباهية به ..

وقررت أخته أن تقيم دعوة على العشاء يرى فيها العروس التى ترشحها له ..

إنها حلوة .. مثيرة رغم الحياء الذى تدعيه وهى أمامه .. بل إنها توحى له بمجرد منظرها أنها فتاة جريئة .. مغرية .. ولكنها أصغر منه بكثير .. أصغر منه بأكثر من عشرين عاما .. ورغم ذلك فليجرب ..

وتولت أخته مسئولية كل إجراءات ومظاهر الزواج .. وكان الحفل الذى صممت أن تقيمه أكبر من أى حفل زواج أقامه منصور لكل زيجاته وإن كان قد صمم على ألا يقام الحفل فى أحد الفنادق كما كانت تريد أخته ..

ومنذ اليوم الأول للزواج ومنصور يحس كأنه يربى قطة .. ويهنأ بمداعبتها .. وبثينة تعطيه أكثر هذا الإحساس بادعائها السذاجة وبتدللها .. ولكنه أيضا كان يتمتع بها كامرأة .. إنها تعرف أكثر مما كان يعتقد عن طريق الوصول إلى إمتاع الزوج ..

ومرت شهور وهو سعيد .. مستسلم لكل المظاهر العائلية التى تسلطها عليه أخته وأهل بثينة .. ولكن بدأت حياته تدخل فيها مظاهر عجيبة .. كأن يصادف أن يدق جرس التليفون وهو فى البيت ويرفع السماعة فلا يرد عليه أحد ويقطع الخط فى وجهه ويحس أن عنقه قد قطع .. وقد تكرر هذا أكثر من مرة .. وكان لا يعود إلى البيت إلا ويجد بثينة راقدة فى الفراش وهى تتحدث فى التليفون .. ولا تكاد تراه أمامها حتى تقول فى السماعة .. حاسيبك يا ماما .. جاء منصور .. ويسمعها كأنها تقول .. جاء الشر .. أو جاءت المصيبة .. وهى دائما تقول كلما ضبطها تتحدث

فى التليفون إنها تحادث أمها .. وهو كعادته كان يترك لها الحرية بمجرد أن يغادر البيت كما كان يفعل مع زوجاته السابقات .. مصرا على اقتناعه بأن كل مهمة الزوجة هى إمتاعه ، فإذا غادر البيت لم تعد لها مهمة ويخشى عليها من الملل والزهق والفراغ فيمنحها الحرية إلى أن يعود إليها .. وكانت بثينة تخرج من البيت وراءه كل يوم تقريبا .. وتقول له دائما إنها كانت فى زيارة أمها .. وقد عاد إلى البيت مرة فى موعد الغداء كعادته فلم يجد بثينة قد عادت .. فرفع سماعة التليفون فورا كأنه يريد أن يضبطها واتصل بأمها يسألها :

— هل بثينة عندكم ؟

وقالت فى صوت مرتعش :

— كانت هنا .. وقد تركتنا منذ دقيقة واحدة .. ربما تأخرت معنا فقد كانت الخياطة معنا .. وستكون عندك بعد لحظات ..

وارتفعت درجة شكوكه مع ارتعاشة صوت أمها .. وعادت بثينة إليه بعد لحظات فعلا .. ولم يحاسبها أو يقول لها شيئا .. ومرت أيام والشك يستبد به .. وطرأت على باله فكرة يحاول بها أن يتخلص من شكه .. فبقى فى البيت ذات يوم ولم يخرج إلى مكتبه كعادته .. وطبعا بقيت معه بثينة دون أن تحاول أن تتحدث فى التليفون الذى كان قد حمله بعيدا عنها ويبدو على وجهها الضيق والكمد .. ربما لمجرد أنه لم يخرج من البيت ويتركها وحدها حرة .. ودق جرس التليفون ورفع السماعة فلم يرد عليه أحد .. وبعد لحظات أدار قرص التليفون وهو بعيد عنها وطلب أمها وقال لها فى رقة :

— هل بثينة عندكم ؟

وعاد يسمع الصوت المرتعش والأم تقول له :

ــ لقد كانت هنا وخرجت منذ دقائق .. أعتقد أنها ذهبت تطوف ببعض الحوانيت .. إنها تبحث عن ثوب جديد .. لقد دللتها يا منصور بيه حتى أصبحت لا تكف عن شراء الفساتين ..

وشكر الأم ووضع سماعة التليفون فى هدوء :

إن زوجته تخونه .. وأمها تتستر عليها .. ربما كانت على علاقة قديمة برجل من قبل أن تتزوجه وأمها تعلم كل شىء .. ولكنه يجب أن يكتشف بنفسه كل شىء .. ولم يحادث بثينة فى شىء .. وتركها وخرج إلى مكتبه فورا .. إنه أقام فى مكتبه قسما خاصا يضم نوعا من الموظفين لهم مواهب معينة .. ويسميه .. « إدارة جمع المعلومات » .. وهو فى الواقع قسم للتجسس على منافسيه فى أعماله .. واستدعى الموظف الذى يثق فيه بهذا القسم .. وبدأ يضع معه الخطة .. واستطاع بنفوذه أن يفرض رقابة خاصة على تليفون بيته .. كما تم تنظيم الخطة مع السائق الذى يتولى قيادة السيارة التى كانت مخصصة لزوجته ..

وفى أيام تجمعت لديه كل المعلومات .. إنها على علاقة بشاب اسمه كريم .. وتخرج من البيت وتنزل من السيارة فى ميدان الدقى .. وتسير إلى أن تصل إلى شارع منزو ثم تدخل فى عمارة .. وتصعد إلى الدور الثالث .. وتختفى داخل الشقة رقم ٣٢ ..

وخططت عملية ضبطها ..

وفى صباح يوم اتصل به سائق سيارة بثينة بالتليفون وأبلغه أنه أوصلها إلى ميدان الدقى .. وبسرعة اتصل بأخته الكبرى فى التليفون ، وقال لها :

ــ سأرسل لك سيارة حالا تحملك للقاء زوجتى بثينة .. وسيكون

معك أحد موظفى مكتبى .. أرجوك .. لا تسألى ولا تجادلى ..

واستسلمت أخته فهى تعرف طبيعة أخيها عندما يكون جادا وتخافه .. وحملتها السيارة إلى الشارع القريب من ميدان الدقى ومعها الموظف وهو رجل يتميز بالضخامة وقوة العضلات .. ودخل بها عمارة وصعد بها إلى الدور الثالث ووقف يدق جرس الشقة رقم ٣٢ ..

وبعد فترة طالت قليلا .. فتح الباب شاب كان لا يزال يزرر جاكتة البيجاما التى يرتديها .. ودفعه الموظف فورا إلى داخل الشقة وأغلق الباب وراءه بعد أن دخلت معه أخت منصور .. وتطلع الموظف حوله يبحث عن شىء ثم دخل إلى الحجرات وهى وراءه .. والشاب واقف فى ذهول .. إلى أن وجدا بثينة فى غرفة النوم راقدة على الفراش وهى عارية ..

ودقت أخته على صدرها وهى تصيح لاهثة :

— يا خبر اسود ..

لقد تعمد منصور أن تكون أخته هى التى تضبط زوجته حتى يكون الطلاق عائليا كما كان الزواج عائليا ..

وقد تم الطلاق فى هدوء .. وتعمد منصور أن يبقى كل شىء سرا من الأسرار العميقة لا يعرفه أحد .. رغم أن سمعته ستزداد سوادا بإضافة زوجة جديدة إلى حياته .. وربما اعتقد الناس أن بثينة مسكينة غلبانة لأنها تزوجت هذا الرجل الذى تعود أن يطلق كل من يتزوجها ..

* * *

وعاد إلى وحدته ..

عاد منهارا .. فهذه الزوجة الأخيرة هى الوحيدة التى تجرأت على

خيانته .. تجرأت على شرفه .. وعلى هيبته .. وتجرأت على هذه الملايين التى يملكها والتى كان يعتقد أنه يستطيع أن يحمى بها شرفه ويشترى بها أى شرف آخر .. لقد ارتكبت جريمة فى كيانه لا يتوقف بعدها نزيف قلبه ولا نزيف عقله .. حتى الكومبيوتر توقف ولم يعد يستطيع أن يقوم له بالحسابات التى ترسم له كل خطوة ..

وقاده الانهيار إلى إلقاء نفسه فى سهرات الليل الخاصة الماجنة المنحلة .. يقيمها أحيانا فى بيته .. أو يقيمها له أحد أفراد هذا النوع الرخيص من الأصدقاء .. بل إنه بدأ يشرب الخمر .. رغم أنه كان معروفا عنه أنه لا يشربها أبدا .. ولا يطيق رائحتها ..

وكان يقيم إحدى هذه السهرات فى بيته .. فى الفيلا الرائعة التى تكاد تكون أقرب إلى قصر .. وقد جمع فيها هذا النوع من الرجال والنساء المتخصصين فى الترفيه عن الداعى باسم الصداقة .. وكان بينهم فردوس التى تدعى أنها فنانة من ممثلات السينما .. إنها معروفة بأنوثتها وليست مشهورة بفنها .. وكان ملتصقا بها يداعبها وتداعبه والخمر تتلاعب به .. إلى أن قال لها وهو يدعى الهمس :

— الليلة لى ..

وقالت بعد أن أطلقت ضحكتها الخليعة :

— إنى لا أكون لأحد إلا بعد توقيع العقد ..

وقال ولسانه المخمور يلتوى :

— أى عقد :

قالت من خلال ضحكتها الخليعة :

— عقد الزواج طبعا ..

وابتسم بينه وبين نفسه وعقله الكومبيوتر متوقف تماما .. إنها فعلا معروفة بتعدد زيجاتها .. ربما تزوجت حتى الآن ثلاث أو أربع مرات .. إنه يفوقها فى عدد الزيجات.. لماذا لا يتزوجها.. والحلال على كل حال أرخص من الحرام خصوصا مع هذا النوع من النساء ..

وأشار بيده واستدعى أحد العاملين عنده وأمره أن يذهب إلى مأذون الحى ويستدعيه فورا ويوقظه من النوم إذا وجده نائما .. ثم صاح بين مدعويه بلسانه المخمور :

— يا إخوانى .. سأتزوج فردوس ..

وجاء المأذون وكتب العقد فعلا بين الأغانى والرقصات والتهليل ..

وفوجئ فى صباح اليوم التالى عندما استيقظ من النوم ووجد فردوس نائمة بجانبه .. وتذكر ما ارتكبه وهو سكران .. لقد تزوج فردوس .. لقد أسقط على رأسه مصيبة كأنه انتحر .. وكان أول ما فكر فيه أن تبقى هذه المصيبة سرا حتى لا تفضحه بين الناس .. واستطاع أن يقنع فردوس بعد أن أفاقت من نومها بالإبقاء على زواجهما سرا .. وحتى يكون سرا فهو يرجوها أن تعود وتقيم فى بيتها ويلتقيا فى السر كزوجين .. وتعهدت فردوس بأن تراعى هذا السر ولكنها قالت له وهى تمثل دور الحياء إنها لا تستطيع أن تعود إلى بيتها :

وقال متوسلا :

— لماذا ؟

وقالت وهى تخفى عنه وجهها مدعية الحياء :

— إنى مدينة وقد أبلغنى الدائن بأنه سيأتى إلى بيتي اليوم ليعلن الحجز عليه ..

وقال بسرعة :

ــ وما مبلغ هذا الدين ؟

وقالت فى حيائها المفتعل :

ــ عشرة آلاف ..

وقال بسرعة :

ــ اذهبى إلى بيتك وسددى له الدين ..

وأعطاها عشرة آلاف جنيه ..

وهذا الزواج رغم أنه كان حريصا على أن يحتفظ به سرا إلا أنه عرف وأصبح خبرا هاما من أخبار المجتمع يتندر به الناس .. ولكنه لا يزال يقنع نفسه بأنه لا يزال سرا ..

وهذه المصيبة التى ارتكبها فى حق نفسه كان لها فضل إنقاذه من انهياره .. لقد ابتعد من يومها عن هذه السهرات الماجنة .. وامتنع عن شرب الخمر .. وعاد عقله الكومبيوتر كما كان .. عاد كله كما كان .. وانحصر كل تفكيره فى كيف يتخلص من هذا الزواج .. كيف يتخلص من فردوس ..

وفردوس تأتى إليه فى البيت كل مساء وهى فى كامل شخصية الزوجة .. إنها تتصرف كأنها ست البيت .. والرجل رجلها .. وكل ما يملكه تملكه هى .. وهى لا تكف عن مطالبها التى تكلفه كثيرا .. وهى تريد أن تنتج لنفسها فيلما سينمائيا .. إن إنتاج فيلم هذه الأيام قد يكلف حوالى نصف مليون جنيه وفردوس لا تفرق بين الحلال والحرام .. كله ثمن واحد .. لا .. إنه لا يستطيع أن يستسلم إلى هذا الحد ..

ولم يكن قد مضى سوى شهرين عندما فاتح فردوس فى الطلاق .. إنه

لا يستطيع أن يطلقها قبل الاتفاق معها حتى لا يعرض نفسه للفضيحة التى يمكن أن تثيرها وتشهر به وبكيانه كله الذى يقوم عليه عمله ..

ولم تفاجأ فردوس بطلب الطلاق .. إنها لا تتزوج إلا لتطلق سواء طلقها الزوج أم طلقته هى .. ولكن كم تدفع يا منصور بيه ؟

ودفع منصور مبلغا ضخما لفردوس وتم الطلاق ..

وقد استطاعت فردوس بما أخذته أن تنتج فيلما لنفسها فعلا .. ولكنه كان فيلما فاشلا .. فهى لا يمكن أن تكون مشهورة كفنانة ولكنها معروفة كأنثى ..

* * *

وعاد منصور إلى وحدته :

إنه الآن تعدى الخمسين من عمره .. وكل ما يريده هو أن يرتاح .. لا يريد شيئا إلا أن يرتاح .. وقد وجد أن أعلى درجات الراحة لا يجدها إلا وبجانبه نوال ..

إن نوال تعمل معه فى مكتبه منذ أكثر من عشرين عاما .. وقد بدأت كسكرتيرة له .. ثم ارتقى بها إلى مديرة لمكتبه .. وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد .. لقد أصبحت على علم بكل تفاصيل العمل .. وبكل أسراره .. وبكل ما له وما عليه .. حتى إنه رفع مرتبها وهى مديرة مكتب إلى أعلى من مرتب مدير عام الشركة .. وهذا ما يحدث فى كل البلاد المتقدمة .. يرتفع مرتب مدير المكتب إلى مرتب أكبر الموظفين .. لأن مدير المكتب هو فى الواقع مدير عقل وتصرفات صاحب الشركة ..

ورغم اعتماده عليها كل هذا الاعتماد فلم تقم بينهما أبدا أى علاقة خاصة .. لا من قريب ولا من بعيد .. ربما لأنه تعود منذ البداية أن يفصل

بين حياته فى عمله وحياته الخاصة .. ونوال قطعة من حياة العمل .. وهى ليست جميلة جمالا زاعقا ولا حتى جمالا يجذب العين .. ولكنها مريحة .. شكلها مريح .. وكلامها مريح .. وتصرفاتها مريحة .. وهى راحة تنطلق من ذكائها .. ذكاء متخصص فى توفير الراحة حتى مع أصعب مشاكل العمل ..

وقد بدأ فى هذه المرحلة من عمره يحتاج إليها أكثر .. إنه يستدعيها كثيرا لتجلس معه ولم يعد حديثه معها قاصرا على العمل .. بل كان يحدثها عن كل دنياه ويصل إلى حد الإباحة بأسرار حياته الخاصة وكل أخطائه .. كأنها البئر الذى يلقى فيه بكل همومه حتى يرتاح .. بل إنه من شدة حاجته إليها بدأ يدعوها إلى بيته لتقضى سهرات معه .. ولم يكن بينهما أى التصاق أو تلامس عشاق .. إن كل ما يجرى بينهما هو حديث لا ينتهى .. إنه أوسع حديث يجمعه بإنسان لأنه يشمل العمل بكل أسراره والحياة الخاصة بكل أسرارها ..

وطرأت على عقله الكومبيوتر فكرة ..

لماذا لا يتزوج نوال ..

إنه زواج يضمن له مصير شركته من بعده .. فهى الوحيدة التى تعلم كيف تديرها أو على الأقل تفهم فى إدارتها .. ولعله ينجب منها ولدا .. إنها المرة الثانية التى يتمنى فيها إنجاب ولد .. كانت المرة الأولى عندما تزوج سهام .. وقد تمنى أن ينجب منها ابنا يرث أموال وشركات أبيها .. وهذه المرة الثانية .. فإنه لو أنجب منها فيستطيع هو وهى أن يجعلا من ابنهما رجل أعمال عبقريا ناجحا يتولى أمر شركته .. والأهم من كل ذلك أنه سيعيش معها الراحة التى وفرتها له منذ التقى بها ..

وقال لنفسه .. إن نوالْ تحبه .. لا شك أنها تحبه .. ليس مجرد العمل هو الذى جمعها به طوال هذه السنوات .. إنه الحب .. بل إنها لم تتزوج حتى الآن رغم أنها أصبحت فى الثانية والثلاثين من عمرها .. لماذا لم تتزوج .. لأنها تحبه .. ولكنه كان أعجز من أن يكتشف هذا الحب .. كانت مسئولية العمل تجرده من لمحات الحب الذى يعيش مع نوال ..

وقال لها وهو فى أرق مستويات إحساسه وعواطفه :

— ما رأيك .. هل نتزوج ؟

وابتسمت ابتسامتها المريحة الهادئة وقالت :

— أى رقم سأحمله بين الزوجات ؟

وقال وهو يشد يدها إلى يده :

— ستكونين الزوجة رقم واحد .. كل ما مضى لم يكن لى فيه زوجات .. كن نزوات .. أو تجارب .. أو أخطاء .. لم يكن لى زوجة حتى اليوم .. وستكونين أنت الأولى ..

وقالت من خلال ابتسامتها :

— لا .. سأكون الزوجة رقم سبعة .. وأنا أفضل أن يكون لى فى حياتك مكان لم يحتله أحد قبلى ولن يحتله أحد بعدى .. وإنى مصرة أن أكون معك دائما .. ولكن فى هذا المكان الذى أنفرد به فيه طول حياتى .. مكانى ملتصقة بك فى العمل ..

وضغط على يدها وهى فى يده وقال متوسلا :

— إنى فى حاجة إليك بقية حياتى .. بل إنى بدأت أفكر بعد الزواج فى أن تكون شركاتى كلها ملكا لنا نحن الاثنين .. وننجب ابنا يتولى حملها بعدنا .. لم يعد لى أمل إلا أملى فيك .. أملى أن تعطينى راحة أوسع من

الراحة التى عشت فيها معك حتى اليوم ..

وقالت وجفناها يرتعشان فوق عينيها :

— اترك لى أياما أفكر فيها ..

وقال وهو يحتضنها بابتسامته :

— سنلتقى غدا ..

وقالت ضاحكة :

— إنه لقاء عمل ..

وقال متوسلا :

— لقد جمعنا بين العمل والحب ..

وقامت .. وانحنت تقبله لأول مرة .. وكانت قبلة على جبينه .. ثم جرت خارجة من البيت كأنها صبية صغيرة ..

وتمدد فوق مقعده مرتاحا فى انتظار نوال غدا ..

عندما تتكلم الكأس !

(١)

كانت شريفة تسمع عن أحمد محروس ولكنها لا تعرفه ..

وربما كانت من كثرة ما سمعت عنه تضع له صورة ترسمها من خيالها .. صورة رجل ناجح يثير إعجاب المجتمع كله رغم أنه لا يزال فى الثلاثينيات من عمره .. وخصوصا إعجاب النساء .. فهو وسيم .. رشيق .. جذاب .. أنيق .. وكان يقال عنه إنه إنسان جاد .. فإنه قليل الكلام .. لا يتحمل مسئولية الكلام إلا إذا تكلم فى موضوع يخص أعماله .. وهى أعمال أصبحت واسعة تكاد تشمل الداخل كله وتمتد إلى العالم كله .. وأصبح معروفا عنه أنه جمع عشرات الملايين رغم أنه لم يبدأ ولم يعرف إلا منذ سنوات قليلة ..

وربما كان أعجب ما يثير التساؤل عن أحمد محروس هو أنه لم يتزوج حتى اليوم .. ولم يعرف عنه أى قصة تجمع بينه وبين أى امرأة .. لا قصة حب قديم ولا قصة حب قائم فى السر أو العلن .. ويقال عنه إنه ليس بصباصا للنساء ولا يقدم على الغزل مهما أثارته المرأة التى أمامه .. بل إنه يكتفى دائما بالاحترام المتبادل .. وهو يضع احترامه فى أسلوب جذاب حتى يصبح كأنه احترام أقوى سحرا من الغزل .. ولا شك أن أى امرأة تتمنى أن تتزوجه أو تتمنى أن يكون لها معه قصة حتى بغير زواج ..

إن شريفة نفسها رغم أنها لا تعرفه كانت تدور على بالها أحيانا خواطر تدفعها إلى تصور أنها تزوجت أحمد محروس .. هذا الرجل الذى يتكلم

عنه كل الناس بإعجاب .. وتضحك ساخرة من نفسها عندما يراودها مثل هذا الخاطر .. إنها لم تفكر أبدا فى اختيار الرجل الذى تتزوجه .. ولكنها كانت دائما مستسلمة للأقدار .. لقد كانت تعلم دائما أنها أجمل أخواتها البنات الأربع .. لذلك كانت أول من تزوج منهن رغم أنها لم تكن كبراهن .. كانت الثانية بينهن .. واستسلمت أيامها لما تقرره العائلة بالنسبة للرجل الذى تقدم مصرا على أن يتزوجها هى متعديا أختها الكبرى .. ولم تسأل نفسها هل تحب هذا الرجل أم لا تحبه .. بل حتى لم تختبر إحساسها لتتأكد من أن هذا الرجل يجذبها أو لا يجذبها .. اكتفت بالأحكام التى أصدرتها العائلة عليه .. إن شكله مقبول .. ولا يكبرها سوى بثمانى سنوات .. وهو من عائلة محترمة .. وهو غنى وإن لم يكن واسع الثراء .. وهو ناجح وإن لم يكن باهر النجاح .. وتزوجت .. وهى إلى اليوم وبعد أكثر من خمس سنوات لا تحبه ولا تكرهه .. ولا ينقصها شيء وإن كان ليس فى حياتها ما يبهرها ولا ما يشغلها .. بل إنها لم تنجب .. لم تلد .. ولم يهمها كثيرا أن تعلم أن زوجها هو السبب فى عدم الإنجاب .. زوج عنين .. حتى لو كانت هى العاجزة عن الإنجاب .. لا يهم .. إنها فى حالة استسلام بارد .. وربما استمرت فى هذا البرود لأن طبيعة عمل زوجها يأخذه بعيدا عنها غالبا .. فهو دائما فى مزارعه .. ودائما فى أوربا .. وهو يتركها حرة .. منتهى الحرية .. لا يحاسبها على شيء من حريتها ولا يكلفها بشيء يشغلها عن هذه الحرية .. ورغم ذلك فهى تعيش حرية باردة .. لا تجد فيها شيئا من الحرارة إلا إطلاق نفسها مع خيالها .. كما تتخيل نفسها لو أنها تزوجت أحمد محروس ..

إلى أن قابلت صدفة صديقتها عنايات .. إنها صديقة كل طفولتها و كل

حلو

صباها .. كانت جارتها وزميلتها فى المدرسة من أول روضة الأطفال إلى المدارس الثانوية .. وكان معروفا عنها جرأتها فى الشقاوة .. وعشرات القصص مع الأولاد والشبان .. ولكن شريفة لم تكن تشترك معها فى جرأتها .. وإن كانت تحب أن تسمع منها حكايات مغامراتها .. بل إن عنايات كانت تلجأ إليها كلما وقعت مشكلة باعتبارها تمثل العقل الهادئ والمبادئ المتحفظة وترفض أى مغامرة مع أى شاب .. وقد تزوجت عنايات قبلها .. وتباعدتا منذ تزوجتا هما الاثنتين .. باعدت بينهما أوان ومطالب الحياة ..

وفرح الاثنتان بلقاء الصدفة .. وانطلق الكلام والصياح والضحكات بينهما كأن كلا منهما استردت طفولتها وصباها .. وصاحت عنايات :

— لقد ازددت جمالا يا شريفة ..

وقالت شريفة ضاحكة :

— وأنت .. هل ازددت شقاوة .. لمعة عينيك واحمرار خديك لم يهدأ منهما شىء ..

وقالت عنايات ضاحكة :

— الشقاوة معناها الذكاء .. وأنت طول عمرك غبية وأنا الذكية ..

واستمر بينهما الكلام كأنه لن ينتهى أبدا .. وكل منهما تروى حكايتها مع زوجها .. إن عنايات تقول إنها متفقة مع زوجها فى كل شىء .. حتى إنهما يبتسمان فى وقت واحد ويكشران فى وقت واحد .. وقالت شريفة إنها تكاد تكون وحيدة فزوجها دائما بعيد عنها إما فى مزرعته وإما فى أوربا مشغولا فى عمله ..

وسكتت عنايات برهة وهى تبحلق فى وجه شريفة كأنها تفكر فى

مغامرة جديدة ثم قالت لها :

— هل أنت وحيدة هذه الأيام ؟

وقالت شريفة وهى تتنهد وهى تبتسم كأنها تسخر من نفسها :

— وحيدة ..

وقالت عنايات بسرعة :

— إذن أنت مدعوة عندى على العشاء غدا .. أريد أن نعيد صبانا ونحن زوجات ..

وظهر التردد على وجه شريفة وقالت وهى تساوى شعرها بأصابعها فى حركة مفتعلة :

— هذه أول مرة أزورك فى بيتك ..

وقالت عنايات ضاحكة :

— حتى تكتشفى الفارق بين بيت الزوجية وبيت الصبا ..

وعادت شريفة تقول من خلال ترددها :

— هل سيكون معنا مدعوون ؟!

وقالت عنايات بسرعة :

— لن يكون معنا إلا صديق لزوجى لا يعتبر غريبا عنا .. ولا بد أنك تعرفينه أو سمعت عنه .. إنه معروف جدا ..

وقالت شريفة فى دهشة :

— من ؟

وقالت عنايات ببساطة :

— أحمد محروس .. ليس فى مصر من لا يعرف أحمد محروس ..

وارتعش جفنا شريفة فوق عينيها وقالت كأنها ساهمة :

ـــ لا أعتقد أنى أستطيع و ..

ثم رفعت جفنيها عن عينيها واستطردت قائلة كأنها تحررت من ترددها :

ـــ سآتى .. غدا .. فى التاسعة ..

* * *

وبدأت شريفة تهتم بإعداد نفسها أكثر عما تعودت .. لا تدرى لماذا .. ولكنها وجدت نفسها تهتم بإعداد نفسها كل هذا الاهتمام .. وتذهب إلى الكوافير .. وتطمئن على المانكير الذى يطلى أظافرها .. وتقضى فترة طويلة فى اختيار ثوبها وحذائها وتزيين وجهها .. كأنها ذاهبة إلى حفل كبير فى مناسبة هامة فريدة ..

وكانت هناك فى الساعة التاسعة .. ورحبت بها عنايات ورحب بها زوجها أكثر .. ولم تجد من المدعوين إلا زوجا وزوجة لا تعرفهما ولكن يبدو أنهما صديقان مقربان .. صداقة بلا كلفة .. ولم تجد أحمد محروس .. وقالت لها عنايات :

ـــ لقد اعتذرت لكل من كنت قد دعوتهم حتى لا أزعجك بالغرباء .. إنها أول زيارة لك وأردت أن أخصصها لاستعادة صبانا ..

وبدأت عنايات تبذل كل مواهبها فى الكلام وإثارة الضحكات ورواية ذكرياتها مع شريفة .. ولكن شريفة لا تزال تحس بالغربة .. وتفتعل كل شىء .. تفتعل حتى ضحكاتها .. وتمر بها لمحات تركز بها عينيها على « البار » الكبير الذى يتصدر صالة الاستقبال .. إنه مزدحم بكل أنواع المشروبات .. أنواع الخمر .. وقد حاولت عنايات أن تقدم لها كأسا وقالت لها شريفة وهى تنظر إليها كأنها تلومها :

— إنى لم أتطور إلى حد أن أشرب الكأس ..

وصاحت عنايات :

— عين العقل .. وستبقين دائما ست الستات ..

وكانت الساعة قد وصلت إلى العاشرة .. وسمعت شريفة الباب يفتح ثم ظهر أمامها أحمد محروس ..

وقفزت عنايات وزوجها وضيفاهما يرحبون به مهللين منطلقين مما أكد عدم الكلفة بين الجميع وإن كان أحمد محروس يستقبل هذا الترحيب بابتسامة واسعة هادئة .. وكل ما فيه هادئ متزن .. وكانت شريفة جالسة فى مقعدها ولم تتحرك ترحيبا به .. ولكنها كانت تتطلع إليه كأنها تتفرج عليه .. تتفرج على ملامح تمنت أن تراها عن قرب منذ زمن طويل .. إلى أن تقدم إليها فرفعت له يدها تصافحه وهى جالسة .. إنه ينظر إليها فى صمت كأنه فوجئ .. وعنايات تصيح ضاحكة :

— لا بد أنكما فى حاجة إلى تعارف .. كل منكما يحاول أن يعرف الآخر ..

ولم ينطق أحمد بكلمة .. وابتسامته تبدو كأنها ترتعش فوق شفتيه .. واستدار بسرعة ناحية « البار » والتقط كأسا كان قد أعدها له صاحب البيت .. وشريفة تراقبه من بعيد وهو يحادث الجميع فى هدوء حديثا عاما تتخلله ضحكات .. إن ضحكته أيضا مهذبة .. كأنها نغم ..

وأنهى الكأس التى فى يده بسرعة .. ورأته يلتقط كأسا ثانية .. وانتهى من الكأس الثانية كأنه ابتلعها كلها فى جرعة واحدة .. ورأت فى يده الكأس الثالثة .. إنها لم تكن تعرف عنه أنه يشرب الخمر .. وكانت الكأس الثالثة لا تزال فى يده عندما اقترب منها وقال وهو يمد لها يده

الثانية :

ــ نتصافح مرة ثانية .. فلم نستكمل مصافحتنا الأولى ..

ومدت له يدها وهى تبحلق فيه بدهشة كأنها فوجئت .. إن عينيه تنطلقان بنظرة أكثر جرأة .. لعلها أكثر صراحة .. وابتسامته أكثر اتساعا وتفيض بسعادة يعلنها .. بل إنه احتفظ بيدها فى يده وهى تصافحه حتى اضطرت بعد لحظات أن تشدها منه فى رفق وبين شفتيها ابتسامة كأنها تعتذر بها عن استرجاع يدها من يده ..

وقال بصوت هادئ ولكنه ينبض بالجرأة :

ــ هل تعلمين أن هذا ليس لقاءنا الأول ..

وقالت من خلال ابتسامتها الخجولة :

ــ هل التقينا من قبل .. متى ؟

وشد وسادة صغيرة من فوق المقعد المجاور وألقاها على الأرض وألقى نفسه فوقها جالسا وهو يكاد يكون ملتصقا بساقيها وإن كان لم يكن فعلا ملتصقا بها .. وقال :

ــ كان ذلك منذ أكثر من عامين .. وقد رأيتك فى حفل استقبال أقامته شركة توزيع المنتجات الزراعية .. رأيتك من بعيد .. ولا أدرى هل رأيتنى أنت .. لقد كان فعلا حفلا مزدحما ..

وقالت بضحكة هادئة :

ــ للأسف لم يسعدنى الحظ أن أراك ولو من بعيد .. ولكنى كنت أعلم أنك موجود ..

وقال وهو يرفع إليها عينيه :

ــ إنى من يومها وأنا أحس أننا التقينا .. وقد حدثتنى عنايات عنك

كثيرا .. وربما عرفت عنك بعد ذلك أكثر مما تعرف عنايات ..

وقالت تقاطعه فى لوم :

ـــ هل تعمدت عنايات أن تجمعنا اليوم .. هل كنت متفقا معها على هذا اللقاء ؟..

وقال وعيناه تنضحان بالصدق :

ـــ أبدا .. لقد فوجئت بك .. فليس من عادتى أن أفتعل أو أن أسعى .. سواء فى حياتى العامة أو فى حياتى الخاصة .. ولكن أثق فى القدر .. واعتمدت على الصدفة ..

وقالت كأنها تعتذر له :

ـــ فعلا .. إن عنايات لم تدعنى إلا فى لقاء صدفة .. ولكن .. ماذا قالت لك عنى عنايات ؟..

ورفع يده بالكأس إلى شفتيه وارتشف رشفة ثم قال :

ـــ كانت تقول دائما إنك امرأة صعبة ..

ونظرت شريفة إلى الكأس التى فى يده كأنها تتقزز ثم قالت :

ـــ ماذا تعنى بأنى امرأة صعبة ..

وقال وعيناه تطوفان بوجهها :

ـــ تعنى أنك امرأة محترمة .. وربما لهذا كنت مكتفيا بلقائنا الأول .. اللقاء من بعيد .. ولكن كان هناك سبب آخر لا ينسينى هذا اللقاء .. وهو أنى أعلم أنك وحيدة كما أنى وحيد ..

وقالت من خلال ابتسامتها :

ـــ حتى لو كنت وحيدة فإنى متزوجة .. أما أنت فوحيد بلا زواج ..

وقال وعيناه سارحتان كأنه يعانى :

— الوحدة ليس معناها أن ليس هناك من يحيط بك .. ولكن معناها أن ليس هناك من يعيش بداخلك .. وأنت وحيدة ويحيط بك زوج كما تحيط بك عائلتك وصديقاتك .. وأنا وحيد رغم أنه يحيط بى العشرات .. رجال ونساء ..

وقالت كأنها مصرة على أن تعرف :

— ولكن كل الناس تتساءل لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

ورشف رشفة من الكأس وقال :

— لأنى لم أجد المرأة الصعبة التى أتزوجها .. وحتى لو كنت قد وجدتها فهى وحيدة ولكنها ليست حرة ..

وأرخت عينيها عنه .. والتقطت بيدها يدها الأخرى وأخذت تضغط عليها .. إنها فهمت ما يقصده .. إنه يقول إنه كان يتمنى أن يتزوجها .. وباقى الموجودين حولهما مبتعدون عنهما .. كأنهم يتعمدون أن يتركا كلا منهما للآخر .. ونظرت إلى ساعتها فى افتعال كأنها تستغيث بها ثم قالت فى صوت مرتعش :

— الحادية عشرة والنصف .. تأخرت .. أنا آسفة ..

وقفزت واقفة تلم ثوبها حولها لتنصرف .. وقفز معها .. ولم يلح عليها أن تبقى .. ولم تلح صديقتها عنايات كثيرا .. وقال وهو يخطو معها ليودعها نحو الباب :

— سنلتقى ..

قالت وهى تنظر فى عينيه كأنها تتحدى ضعفها أمامه :

— كلانا يؤمن بالصدفة ..

* * *

وعاشت ساعات نهارها وليلها وهى تردد كل كلمة سمعتها منه .. لم تضيع منها أى كلمة وكأنها سجلتها كلها مكتوبة على صفحة ذاكرتها .. ولكنها يجب ألا تستسلم لهذه الكلمات وتطلق خيالها وراءها .. إنه لم يتكلم إلا بعد أن شرب الخمر .. تكلم مع الكأس الثالثة .. وقبل أن يشرب الخمر لم يقل ولا كلمة .. إن ما سمعته هو كلام مخمور .. رجل سكران .. ويجب أن تقاوم كل معنى يخطر على بالها لأى كلمة ويجب أن تنسى كل هذا الكلام .. وهى تقاوم فعلا .. تشغل نفسها بعشرات المسئوليات والمشاكل واللقاءات .. ولكنها لا تستطيع أن تنسى ولا كلمة ..

وبعد يومين دق جرس التليفون وسمعت صديقتها عنايات تقول ضاحكة :

ــ هل أنت وحيدة ..

وقالت شريفة وهى تضحك معها :

ــ وحيدة ..

وصاحت عنايات كأنها فرحة بوحدتها :

ــ الليلة عندى ..

وقالت شريفة فورا :

ــ غير معقول .. المفروض أن تردى الزيارة .. الليلة عندى أنا ..

وقالت عنايات وقد عادت تضحك :

ــ حرام عليك .. إنى لن أجد عندك ما أقضى به السهرة إلا الكلام .. وإذا ضقت بالكلام لن نجد إلا التليفزيون الذى لا أطيق مجرد وجوده أمامى .. وأنت تعلمين أنى فى صباى لم أكن أطيق الهدوء .. فتعالى عندى

حتى لا تعرضينى للهدوء ..

وقالت شريفة كأنها تلح عليها بالمصارحة :

— من عندك ؟

وترددت عنايات برهة ثم قالت :

— لا أحد سوى أحمد محروس ..

وقالت شريفة فى صوت حاسم :

— كونى صريحة معى .. هل هو الذى طلب منك دعوتى ؟

وقالت عنايات فى صوت متلعثم متردد :

— لو أردت الحق فهو فعلا الذى يريد أن يراك .. سيجن ليراك .. لا تتركيه ليجن ..

وقالت شريفة فى حزم :

— آسفة يا عنايات .. لا أستطيع .. مع السلامة .. سأتصل بك ..

وألقت سماعة التليفون دون أن تسمع بقية كلام عنايات .. وأخذت تروح وتجىء فى البيت وهى تمسح بيديها بكل ما يصادفها وتحاول أن تمزقه .. ثم عادت إلى التليفون ورفعت السماعة وطلبت عنايات وقالت كلمة واحدة :

— سأكون عندك هذا المساء .. مع السلامة ..

وألقت سماعة التليفون ..

إنها ستلقاه لتكون صريحة معه .. منتهى الصراحة .. ماذا يريد منها .. حتى لو لم يكن يريد سوى مجرد الصداقة .. فليس هذا هو أسلوب الصداقة .. أن يلقاها فى جلسات خاصة خصوصا وأنها أصبحت متأكدة أن عنايات هى المسئولة عن تدبير وإعداد جلساته الخاصة ..

ورغم ذلك وجدت نفسها تبذل مجهودا أكبر فى إعداد نفسها لهذا اللقاء .. لقد رآها منذ يومين جميلة .. وتريد أن يراها هذه الليلة أجمل ..

وكانت هناك فى الساعة التاسعة .. ووجدت أحمد كأنه فى انتظارها .. وفى يده كأس .. لعلها الكأس الثانية .. وجلست معهما عنايات وزوجها يتكلمون كلاما تافها ثم قاما وتركاها وحدها مع أحمد .. كل شىء معد ومحسوب حسابه ..

وقالت شريفة وهى تبحلق فى الكأس التى يرفعها أحمد إلى شفتيه :

ـــ إنى أعلم أن لقاء اليوم ليس لقاء صدفة .. رغم أن كلانا يؤمن بالصدفة ..

وقال أحمد وهو يمد يده ويضعها فوق يدها ثم لا يعترض وهى تسحب يدها من تحت يده :

ـــ إن الصدفة تحدد البداية ، ثم على الإنسان أن يسعى إلى استغلال هذه الصدفة ..

وقالت فى صوت جاد :

ـــ وماذا تسعى إليه ؟

وقال فى صوته الهادئ :

ـــ إن كل ما أسعى إليه هو أن أراك وأكون معك .. ولكن ليس هناك ما أسعى إليه من وراء رؤياك وكونى معك .. إنى أعلم أنك امرأة صعبة .. مستحيلة .. ولا يمكن أن ألقاك كمجرد امرأة جميلة .. لا بد أن هناك واقعا آخر لم يكتمل فى إحساسى بعد ..

وقالت كأنها تسخر منه :

ـــ إنك معروف بأنك رجل ناجح .. وربما كنت تحاول أن تنجح فى

أن تجعل منى امرأة سهلة .. لا مستحيل أمام أحمد بيه محروس ..

وقال وهو ينظر إليها بكل عينيه كأنه يلومها :

— لو حدث هذا لفقدتك .. ولن يكون نجاحا بل سيكون فشلا فى الاحتفاظ بامرأة صعبة .. مستحيلة .. ولا أريد أن تقبلى لقائى ثقة بى ولكن ثقة بنفسك .. كما أنى ألقاك بإحساس أنك أقوى منى .. أقصد أنك لن تضعفى أمامى لتكونى مجرد جسد .. مهما تصورت فيما أريده من لقياك ..

ورفع كأسه والتقط بشفتيه الثمالة ثم قام إلى « البار » وأعد لنفسه كأسا أخرى .. لعلها الكأس الثالثة .. وبحلقت فى الكأس بعينيها كأنها حائرة فيها .. ثم ابتعدت بعينيها عن الكأس وقالت :

— إن كل لقاء له معنى .. فما معنى لقائنا ..

قال بعد أن رشف من الكأس :

— معناه أننا نريد اللقاء .. لا أكثر ..

قالت وهى مصرة على أن تفهم :

— إن الظروف التى تحيط بكل لقاء هى التى تحدد معناه .. ونحن نلتقى كأننا مختبئان .. كأن بيننا ما نخفيه عن الناس .. ولا تقل لى إنى فى زيارة صديقتى عنايات .. وعنايات كانت صريحة معى فهى لا تدعونى لنفسها ولكنها تدعونى لك .. فما معنى كل ذلك ..

ورفع الكأس والتقط جرعة أكبر ثم قال مبتسما :

— كأنك تصرين على شراء الثوب الجاهز .. ولا تطيقين أن تتعبى فى انتظار التفصيل ..

وقالت حائرة :

ـ وماذا أنتظر تفصيله ؟

قال فى بساطة :

ـ تفصيل المجهول .. إننا فى انتظار المجهول ..

وصاحت :

ـ وماذا يدفعنى لأن أعيش فى انتظار المجهول ..

وقال فى هدوء :

ـ المجهول هو القدر .. قدرنا .. وأنت وأنا كل منا يشد الآخر إلى هذا القدر ..

وقالت كأنها تحادث نفسها :

ـ إن القدر يحدده الإنسان على أنه أمل .. سواء تحقق أم لم يتحقق .. فيجب أن يكون هناك أمل فى انتظار القدر ..

وقال فى حدة :

ـ كأنك تحرضيننى على الاعتراف .. لن أعترف ..

وسكب بقية الكأس فى فمه وقام يعد كأسا أخرى .. لعلها الكأس الرابعة .. وقالت وهي تبحلق فى عينيه :

ـ ماذا أحرضك على الاعتراف به ؟..

ـ وقال وهو يرفع كأسه إلى شفتيه :

ـ الاعتراف بالحب ..

وقالت وهى تتنهد :

ـ حتى الحب لا يعيش إلا على أمل .. إنى لا أستطيع أن أعترف لك بالحب ولا أقبل اعترافك به .. لأنه ليس لهذا الحب أمل ..

وصرخ وكأسه ترتعش فى يده :

— لقد وصلنا الآن إلى القمة ..

وقفزت واقفة وهى تقول :

— لقد تعبت .. لن أستطيع الوصول إلى القمة ..

ثم جرت تنادى صديقتها عنايات من داخل البيت وهى تصيح :

— عنايات .. أين العشاء ..

ولكنها لم تنتظر حتى تتناول العشاء وأصرت على الخروج .. لقد تأخرت .. وقالت وقد تركت يدها ليد أحمد يضغط عليها وهو يودعها :

— هل أستطيع أن أتصل بك فى التليفون غدا .. صباحا ..

ونظر إليها أحمد كأنه حائر ، ثم أخرج بطاقة من جيبه وقلما كتب به عليها رقما وقال باسما ورائحة الخمر تهب عليها من بين شفتيه :

— سيكون هذا الرقم لك وحدك ..

(٢)

إن شريفة تعترف بأن أحمد محروس أصبح بالنسبة لها الحكاية الوحيدة التى تعيش فيها .. ولكن أى حكاية ؟

إنها لم تجتمع به حتى اليوم سوى فى لقاءين .. وكل لقاء كأنه لقاء خاص .. فى الليل .. وفى مكان منزو مغلق عليهما .. حتى لو كان قد تم فى بيت صديقتها عنايات .. ومنذ اللقاء الأول وهو يقول لها كلاما غريبا ويتركها تفهم منه ما هو أغرب .. ولكنه لم يتكلم أبدا إلا بعد أن يشرب الكأس الثانية .. ولا يستمر فى الكلام إلا وهو يرويه بالخمر .. هل هو كلام سكران لا يعنى ما يقول ؟.. ولكنه لا يتلعثم وهو يتكلم .. ولا تترنح شفتاه بالكلام كما هى عادة السكارى .. بل إنه يبدو طبيعيا كامل الاتزان .. وكامل الشخصية .. حتى بعد أن يصل إلى الكأس الرابعة .. فما هى الحكاية ؟!

وقد طلبت منه رقم تليفونه الخاص لأنها تريد أن تستريح من كل ما يشغل خواطرها ..

تريد أن تسمع صوته فى النهار .. فهى لم تسمعه حتى اليوم إلا فى الليل ..

وتريد أن يحادثها وليس فى يده كأس .. وطبعا لن يكون فى يده كأس إذا حادثها وهو فى مكتبه ومع عمله .. لعلها بعد ذلك تفهم الحكاية ..

ولكنها لم تحادثه بالتليفون فى اليوم التالى أى فى صباح الليلة التى جمعتهما .. إنما تركت اليوم يمر .. حتى تستكمل هدوءها وحتى لا تتركه

يظن أنها ملهوفة عليه .. ثم تركت يوما آخر يمر .. وهى تقاوم كل لهفتها عليه .. وفى اليوم الثالث شدت كل أنفاسها وضغطت على كل أعصابها كأنها تعد نفسها لمغامرة عنيفة .. وأدارت رقم التليفون .. إنه الرقم الذى قال لها إنه سيكون خاصا بها .. كيف يستطيع أن يخصص لها رقم تليفون فى حين أن الرقم موجود من قبل أن يلتقى بها .. لعله الرقم المخصص للأحاديث النسائية .. ولعله كان سكرانا وهو يقول هذا الكلام ..

وسمعت صوته .. إنه بمجرد أن قال « ألو » تحس أنه صوت مختلف عن الصوت الذى كانت تسمعه به فى السهرة وهو سكران .. إن « ألو » يقولها برنة جادة جافة .. كأنها رنة مأمور ضرائب يبدأ عملية حساب ..

وقالت له وهى تفتعل الرقة :

ــ هل تعرف من أنا ؟!

وقال دون أن يمهل نفسه لحظة للتردد أو التفكير :

ــ طبعا ..

قالت ضاحكة ضحكة خافتة :

ــ من أنا ؟

قال بالصوت الجاد الجاف :

ــ إنى أعرف من أنت ..

وأحست بهذا الصوت كأنه يصدها ويريد أن ينتهى منها بسرعة ليعود إلى عمله .. وقالت وفى صوتها رنة خيبة أمل :

ــ لقد حادثتك حتى أسمع صوتك فى النهار فإنى لم أسمعه إلا فى السهرات ..

وقال بسرعة دون أن يضحك ودون أن يضيف إلى صوته شيئا من

الرقة :

— إنه دائما صوتى ..

وقالت كأنها مغتاظة :

— إنه ليس الصوت الذى كنت أسمعه ..

وقال وهو لا يزال متعجلا :

— سنتفاهم حول هذا الموضوع ..

وقالت فى حدة :

— إنه موضوع لا يستحق التفاهم .. مع السلامة ..

وأعادت سماعة التليفون قبل أن تزيد على ما سمعته كلمة واحدة ..

لقد كانت تحادث شخصا آخر غير أحمد محروس الذى عرفته .. شخص جاد جاف غير هذا الشخص المنطلق الرقيق الذى يحدثها فى السهرة .. بل إنه رفض أن يردد اسمها على شفتيه عندما سألته وهو يحادثها .. من أنا .. ومن يدرى .. ربما كان يحادثها وهو يعتقد أنها امرأة أخرى تعودت أن تحادثه .. أو ربما كان لا يستطيع أن يكون شخصا منطلقا رقيقا إلا وهو سكران .. وطبعا لم يكن سكرانا فى مكتبه .. ولكن .. لماذا لا تفترض أنه لم يكن طبيعيا وهو يحادثها لأن حول مكتبه أفرادا ممن يتقابل معهم .. وقد حرص على ألا يكشف سرها أمام هؤلاء الأفراد .. وربما لهذا حرص على ألا يردد اسمها حماية لها وصونا لسمعتها ..

إنها لا تدرى ..

وهى أشد حيرة فى حكايتها معه ..

وفى عصر نفس اليوم اتصلت صديقتها عنايات وقالت ضاحكة :

— الليلة عندى ..

وصاحت شريفة وصوتها يرتعش :

ـ هل هو الذى طلب دعوتى ..

وقالت عنايات وصوتها يتمايل مع ضحكتها :

ـ هو .. إنه لم يعد يستطيع الصبر .. يبدو أنه غرق فيك حتى آخره ..

وعادت شريفة تصيح :

ـ قولى له إنى لم أعد أقبل أن ألقاه وحدنا حتى فى بيتك .. لن أراه بعد اليوم إلا بين الناس .. أو فى مناسبة عامة .. كل ما بيننا إذا أراد أن يسميه صداقة فهى صداقة يكفيها أن أراه ويرانى من بعيد ..

وقالت عنايات فى دهشة :

ـ لا تكونى مجنونة ..

وقالت شريفة ساخرة :

ـ كأنك تطلبين منى ألا أكون عاقلة ..

وانتهى الحديث ببضع كلمات .. وأنفاسها تتهدج كأنها بذلت كل ما يمكن أن تتحمله أعصابها .. إنها تعترف بأنها تقاومه .. وتقاوم بعنف حتى لا تلتقى به .. تقاوم أمنيتها التى تنبض مع كل عواطفها حتى تلقاه .. وتلقاه وحدهما .. حتى وهو سكران .. هل تعترف بأنها وقعت فى الحب .. لا .. ليس من حقها أن تقع فى الحب .. لعله من حقها أن تحلم بالحب كما كانت تحلم به قبل أن يلتقيا .. ولكن ليس من حقها أن تعيش هذا الحب .. فقط تحلم به ..

وفى صباح اليوم التالى اتصلت بها صديقتها عنايات وقالت لها دون مقدمات :

— سترينه من بعيد .. وأنت تعلمين أن زوجى مدحت هو رئيس العلاقات العامة بالشركة وسيقيم حفلا مساء غد يدعو إليه أكثر من ثلاثين وربما خمسين شخصا .. وسيكون هو فى الحفل .. وأظنك لن ترفضى الدعوة ..

وقالت شريفة فى كلمات بطيئة كأنها تفكر :

— أين الحفل ؟

وقالت عنايات وكأنها مغمومة :

— عندى .. فى البيت .. ولو أنى أكره أن أقيم هذه الحفلات المزدحمة .. السخيفة .. ولكن من أجل خاطرك أتحمل كل السخافات ..

وقالت شريفة فى دهشة :

— من أجل خاطرى أنا ؟

وقالت عنايات كأنها تنهرها وإن كانت تفتعل الرقة :

— لا تدعى الغباء .. أنت تعلمين لماذا يقام هذا الحفل ..

وقالت شريفة من خلال دهشتها :

— والله .. لا أعلم ..

وقالت عنايات فى ملل :

— عندما تأتين ستعرفين ..

وقالت شريفة وكأنها استقرت على رأى :

— سآتى ..

* * *

وألقت شريفة سماعة التليفون وألقت بنفسها جالسة وهى مبهورة .. هل يمكن أن يكون أحمد قد أمر بإقامة هذا الحفل فقط ليراها .. هل يصل

إلى هذا الحد فقط ليراها .. وأحست بعاصفة من الغرور الفرح تتراقص بقلبها .. لا شك أنه يحبها .. ويعلن حبه لتلبية كل ما تريد حتى يراها ولو من بعيد .. وهي التي أرادات ألا يراها إلا فى حفل مزدحم حتى لا يكونا وحدهما .. فأقام لها الحفل المزدحم .. ولكن .. لماذا تتصور أنه الحب .. ربما كان فقط يريدها كما يريد أى امرأة أخرى تثير شهوته وتفتح شهيته لأن يأكلها .. وهو غنى واسع الثراء يستطيع أن يبعثر الآلاف ليصل إلى ما يريد .. ولكنه نوع معين من النساء الذى يقبل الاستسلام لما يريده الأثرياء .. وهي ليست من هذا النوع .. إنها لا يمكن أن تستسلم ولا لما يريده أغنى أغنياء العالم .. إنها لا تستسلم إلا إلى ما تريده هي إذا التقى بما يريده هذا الرجل .. وهي واثقة من نفسها وبما تريد .. وهي تريد أن تلبى دعوة صديقتها عنايات .. حتى وهي تعلم أنها تلبيها فقط لترى أحمد ..

وقضت ساعات نهارها وليلها تعد نفسها لهذا اللقاء وكل فكرها مشغول به ..

وتعمدت أن تذهب إلى الحفل متأخرة قليلا حتى تطمئن إلى أن كل المدعوين قد تجمعوا ..

ولمحته بمجرد أن دخلت .. كان واقفا فى ركن بعيد وعدد كبير من المدعوين ملتفين حوله .. وعلى شفتيه ابتسامة جادة جافة .. ولا شك أنه لمحها .. إن عينيه التقتا بعينيها فى هذه اللمحة ولكنه لم يتحرك .. ويقبل عليها ليحييها .. حتى ابتسامته الجادة الجافة لم تتغير لها .. واستسلمت لصديقتها عنايات وهي تمسك بيدها وتطوف بها على بعض المدعوين لتتبادل التعارف معهم إلى أن وصلت بها إليه .. ووجدت عينيه تبرقان

بريقا خاطفا ما لبث أن اختفى وهو يمد يده يصافحها .. ولم تحاول عنايات أن تفتعل كأنها تقدم أحدهما إلى الآخر .. ولكنها قالت ضاحكة :

ـــ الغالية والغالى ..

ولم ينطق أحدهما بكلمة .. بل إنه لم يضغط على يدها وهو يصافحها كما كانت تنتظر أو كما هو مفروض بعد أن أصبح بينهما حكاية .. وهى طبعا لا يمكن أن تضغط على يده .. ووجدت نفسها تنسحب بسرعة من أمامه وتقف بعيدا مع مجموعة من السيدات المدعوات وتتبادل معهن الكلمات التافهة المعتادة .. ولكنها لا تستطيع أن تحرم عينيها منه وترفعهما إليه فى لمحات من بعيد .. لقد التقت بعينيه يتطلع إليها هو الآخر فى أكثر من لمحة .. ولكن الغريب أن ليس فى يده كأس .. رغم أن الخمر تقدم للجميع وفى يد كل منهم كأس .. وقد عرفت فيما بعد أنه لا يشرب الخمر أبدا وهو فى دعوة عامة .. إنه لا يشرب الخمر وهو يعمل .. ويعتبر وجوده فى مثل هذه الدعوات مجرد عمل يقوم به .. لا يشرب الخمر إلا فى جلسة خاصة .. خاصة جدا .. أو وهو وحده .. وهو بلا خمر جاد وجاف ومتحفظ غاية التحفظ كما تراه أمامها الآن ..

وحتى عندما قدم العشاء والتف المدعوون حول « البوفيه » كانت بعيدة عنه .. وليس بينهما إلا هذه اللمحات المتباعدة .. وبعد العشاء مباشرة استأذنت صديقتها عنايات فى الانصراف .. وشهقت عنايات كأنها أصيبت بفزع .. وقالت :

ـــ لا يمكن .. إنى سأتخلص من كل المدعوين الآن .. ونبقى وحدنا ..

وقالت شريفة وهى تقبل عنايات كأنها تخفف عنها خيبة أملها :

ــ لا أستطيع .. أنت تعلمين أنى لا أستطيع ..

وتصاعد إلحاح عنايات وشريفة مصممة .. إلى أن استطاعت أن تنصرف .. خرجت دون أن تحيى أحمد بل دون أن تتزود منه بلمحة .. وسارت وهى تبتسم بينها وبين نفسها كأنها سعيدة بذكائها .. لقد دفع أحمد صديقتها عنايات لتقيم هذه الدعوة تلبية لطلبها ألا تلقاه وحده .. ولكنه وضع مع عنايات خطة بأن يتخلصا من المدعوين مبكرا ليخلو له اللقاء بها وحده .. واتسعت ابتسامتها .. ولكنها لم تكن ابتسامة تسخر بها من أحمد وعنايات .. ولكنها ابتسامة الزهو بنفسها .. إلى هذا الحد يريدها أحمد ..

ووصلت إلى البيت .. وخلعت ثيابها وارتدت قميص النوم وألقت نفسها على فراشها دون أن تنام .. إنها سعيدة باستعراض حكايتها مع أحمد بلا نوم .. وفوجئت برنين جرس التليفون .. إن الساعة وصلت إلى الثالثة صباحا .. ورفعت سماعة التليفون وهى منزعجة من هذه المفاجأة .. خير يا رب .. وهدأت المفاجأة توا وعادت الابتسامة إلى شفتيها .. إنه أحمد .. وصوته ليس هذا الصوت الجامد الجاف ولكنه صوته المنطلق الرقيق .. لا بد أن فى يده كأسا .. وقال بصوته الرقيق :

ــ كنت أتمنى أن أراك وحدك الليلة بعد انصراف المدعوين ..

قالت وهى تفتعل الدهشة :

ــ هل لا تزال فى بيت عنايات ..

قال وهو يتنهد نهدة أثارت إشفاقها :

ــ لا .. إنى فى بيتى .. وحدى .. وأنا فى حاجة إليك ..

وقالت وهى الأخرى تتنهد :

— إنى أعيش وأنا أحاول أن أفسر هذه الحاجة .. حاجتك إلى وحاجتى إليك ..

قال فى صوته الرقيق :

— لقد اتخذت قرارا يريحك ويريحنى ويجب أن ألقاك حتى أعرضه عليك ..

وقالت وصوتها يزداد رقة :

— لماذا لا تعرضه علىّ الآن ..

وقال فى تصميم لم يعكر رقته :

— لا أستطيع أن أعلنك بهذا القرار إلا وأنا أطل فى عينيك حتى أطمئن إلى مصيرنا وأنا أعلنه .. لماذا لا نلتقى ..

وقالت وهى تتنهد :

— لقد قررت أن أترك نفسى للصدفة ولا أحاول أن أستغل هذه الفرصة كما طلبت منى .. وأرجوك .. تحملنى .. ودعنى أفكر حتى أصل إلى قرار كما وصلت أنت إلى قرار .. وقد يجمعنا قرارانا .. تصبح على خير ..

وكأنه فوجئ وهى تطلب إنهاء الحديث فتردد قليلا ثم قال فى صوت خافت يائس :

— نصبح على ما فيه خيرك وخيرى ..

وألقت سماعة التليفون وهى ساهمة حتى إنها ألقتها فى غير مكانها .. إن هذه هى أول مرة يطلبها ليحادثها فى التليفون .. ولكنه طلبها فى الليل .. وأيضا بعد أن شرب الكأس .. لعلها الكأس الثانية أو الثالثة .. ولعله لم يتخذ هذا القرار الذى قال لها عنه إلا بعد الكأس الرابعة .. وبدأت تتصور

أحمد وكأن له شخصيتين متباعدتين مختلفتين .. شخصيته وهو متفرغ لعمله كرجل أعمال ناجح .. وشخصيته البعيدة عن عمله والتى تسيطر عليه وهو وحيد أو وهو مع المقربين .. وفى يده كأس .. وهى ليس لها منه إلا هذه الشخصية الثانية .. كأنه لا يحس بها ولا يحتاج إليها إلا وفى يده كأس ..

وتنبهت إلى صوت ينطلق من سماعة التليفون وهى ملقاة بعيدا عن مكانها .. ألو .. ألو .. شريفة .. ألو .. ألو .. إنه صوته .. وقد صمم على أن يبقى معها ما دام لم يسمع صوت سماعة التليفون وهى تقطع ما بينه وبينها .. ولكنها لا تستطيع أن تعود إليه .. وزحفت بيدها على الفراش ورفعت سماعة التليفون وأعادتها إلى مكانها دون أن تفكر حتى فى الاعتذار له ..

* * *

وفى اليوم التالى فوجئت بعودة زوجها رفعت إليها .. وفرحت بعودته .. كأن الله قد أعاده لينقذها من حيرتها .. إنها وهى وحيدة يضعف إحساسها بأنها زوجة وأن لها زوجا .. أما وهو معها فهى تستكمل به كل وقتها .. وكل إحساسها بمسئوليتها وهى تعيش هذا الواقع .. إنها تستطيع الآن أن تتخذ القرار الصحيح بالنسبة لحلمها أحمد وبالنسبة لزوجها رفعت ..

وقد استقبلت زوجها بأكثر مما عودته من فرحة وترحيب .. وتعمدت أن تستقبله كأنها تحبه .. وأعطته كل ما يثيره الحب من شوق .. ورغم أنها لا تزال تحس بأنها لا تحبه ولا تكرهه .. ولا يجمعها به إلا العقل الراجح السليم ..

واتصلت بها صديقتها عنايات وقالت لها شريفة فورا قبل أن تترك لها الكلام :

ــ لم أعد وحيدة .. عاد زوجى إلى ..

وقالت عنايات كأنها صدمت :

ــ كنت أنوى دعوتك هذه الليلة ..

وقالت شريفة مع ضحكة مفتعلة :

ــ لتكن الدعوة لنا نحن الاثنين .. أنا ورفعت زوجى ..

وسكتت عنايات برهة كأنها تفكر ثم قالت :

ــ سأعود وأتصل بك بعد قليل ..

وألقت فى وجهها بسماعة التليفون كأنها نسيت أن تلقى كلمة وداع ..

ومرت ساعات وشريفة هائمة مع أفكارها .. إنها لو اجتمعت بأحمد ورفعت وهى بينهما فى جلسة واحدة لاستطاعت أن تتخذ قرارا أسرع وأقوى .. هل يستطيع زوجها أن ينقذها من أحمد .. أم هل يتغلب أحمد على زوجها فى السيطرة عليها .. ولكن بأى شخصية سيلتقى أحمد بها وهى مع زوجها .. شخصية رجل الأعمال الجاد الجاف أم شخصية الرجل المنطلق الرقيق الذى يحمل الكأس فى يده .. إنها لا تدرى ..

وبعد الساعات الطويلة عادت عنايات واتصلت بها بالتليفون وقالت فى صوت جاد لم تتعوده منها :

ــ آسفة .. لا أستطيع دعوتك مع زوجك .. فلا أنا ولا زوجى نعرفه ولا سبق أن التقينا به .. وأخشى أن تسيطر الكلفة والافتعال على جلستنا وتصبح جلسة مملة ثقيلة .. وقد ألغيت الدعوة كلها .. وفى الواقع إنى

طهقت من هذه الدعوات ولم يكن فيها ما يفرحنى بها إلا وجودك معنا .. ومع السلامة ..

وتاهت شريفة مع أفكارها ..

لا شك أن عنايات اتصلت بأحمد وعرضت عليه ما حدث .. أى أن تدعوها وتدعو زوجها معها .. ولا شك أن أحمد رفض .. أو على الأقل رفض أن يحضر هذه الجلسة .. لا يريد أن يجتمع بزوجها أو يعرفه .. وما دام قد رفض فقد ألغت عنايات الدعوة فهى لا تقيم الدعوات إلا لخدمة أحمد .. وصداقتها لها منذ عادت بعد أيام الصبا لم تكن إلا محاولة لإمتاع أحمد .. هذه هى عنايات ..

واغتاظت شريفة .. ودفعها غيظها إلى التعلق بزوجها أكثر .. حتى إنه عندما قرر السفر إلى المزرعة سافرت معه إلى هناك على غير عادتها .. كأنها تخشى لو ابتعد عنها وتركها وحيدة أن تنهار .. تنهار لأحمد ..

وبقيت فى المزرعة مع زوجها أكثر من أسبوع .. ولم تستطع أن تحرر نفسها من أحمد ولو دقيقة واحدة .. حتى عندما كانت تتعمد أن تعطى زوجها أكثر لم تكن تتخلص من أحمد وهى تعطيه .. كان زوجها يقبلها وشفتاه بين شفتيها فتتصور نفسها لو كان أحمد هو الذى يقبلها .. كيف تكون قبلة أحمد .. وما طعمها ..

وعندما عادت إلى القاهرة مع زوجها هرعت إلى التليفون كأنها مقدمة على مجازفة خطيرة واتصلت بعنايات وقالت وهى تفتعل المرح وبعد كلام طويل :

— إنى سأقيم حفلا بمناسبة عودة زوجى رفعت .. وقد حدثته عنك كثيرا وقلت له إن صداقة الصبا عادت أقوى مما كانت .. وحدثته عن

زوجك مدحت أيضا .. بل إنى حدثته عن أحمد محروس وقلت له إنك عرفتينى به .. وهو يسمع عن زوجك ويشيد بما يعرفه عن أحمد .. ويشرفه أن تكونوا مدعوين إلى الحفل الذى أقيمه .. بعد غد .. أنت وزوجك وأحمد ..

وقالت عنايات بعد تردد وصوتها لا يخلو من دهشتها :

ــ سأتصل بك بعد قليل ..

وقاطعتها شريفة وقد زهقت من تعمد الرقة :

ــ إذا اعتذر أحمد .. فأرجوك أن تسأليه لماذا يعتذر ..

وألقت سماعة التليفون وقد عادت إليها حيرتها ويغلبها إحساس بأنها تؤنب نفسها .. لماذا أقدمت على افتعال هذا الحفل .. وهذه الدعوة .. إنها لا تزال مصرة على أن تجمع بين زوجها والرجل الذى تحلم به أمامها حتى تختار بينهما .. كأنها حائرة بين شراء قطعتين من القماش الذى ستجعل منه ثوبها وتريد أن تتحسس كل قطعة بأصابعها حتى تتأكد من قيمتها .. ثم إنها لم تعط لأحمد شيئا يجعله يتحمل زوجها كتعويض لها .. ثم إنها كان يجب أن تقدر أن أحمد شخصية كبيرة لا يمكن أن تبتذل نفسها بقبول دعوة غريب .. والحيرة تكاد تفككها ..

واتصلت بها عنايات بعد ساعات وهى تفتعل ضحكة :

ــ آسفة .. الرجل اعتذر .. إنه رجل صعب كما أنك امرأة صعبة ..

وقالت شريفة فى حدة كأنها تصرخ :

ــ لماذا يعتذر ..

وقالت عنايات وهى لا تزال تضحك :

ــ لقد قال لى إنه من أجلك وبسببك يعتذر عن لقاء زوجك

أو معرفته .. كأنه فى معركة معه .. واقبلى أيضا اعتذارى أنا وزوجى مدحت فأنت تعلمين أننا نقف دائما مع أحمد فى أى معركة ..

وقالت شريفة ساهمة :

— لك الحق ..

وألقت سماعة التليفون وهى تحادث نفسها .. ربما كان أحمد أيضا على حق .. إنه ليس من هذا الصنف الذى ينافق الزوج ليصل إلى ما يريده من زوجته .. ولكن ما الحل .. إنها لا تدرى ..

وكان قد مر شهر دون أن تسمع كلمة من أحمد أو من صديقتها عنايات .. يجب أن تعتبر أن الحكاية انتهت .. ولكنها لا تزال تعيش معه كل دقيقة من عمرها .. تعيش معه بخيالها .. وضعفت فى صباح أحد الأيام ورفعت سماعة التليفون وأدارت الرقم الذى قال لها يوما إنه سيكون رقما مخصصا لها .. وسمعت صوته الجاد الجاف الذى يعبر عن شخصيته وهو فى مكتبه .. وقالت له فورا :

— هل تعرفنى ؟

وقال فى بساطة كأنها لم تغب عنه كل هذه الأيام :

— طبعا ..

وقالت دون أن تبتسم حتى بينها وبين نفسها وهى جادة هى الأخرى :

— لقد أردت فقط أن أتأكد من أنك لا تزال تعرفنى .. مع السلامة ..

وألقت بسماعة التليفون ثم ألقت بنفسها فوق فراشها وهى تكاد تهم بالبكاء ..

وبعد شهر آخر أو أكثر سافر زوجها إلى أوربا .. ووقفت تودعه وكل عقلها بعيد عنه .. وما كاد يخرج من البيت حتى رفعت سماعة التليفون واتصلت بعنايات وقالت فى صوت ضعيف رقيق كأنها تستجديها :

ـــ لقد عدت وحيدة .. وتستطيعين دعوتى حتى أراك وأرى معك صباى ..

وقالت عنايات فى فرحة :

ـــ متى تستطيعين قبول الدعوة ؟

وقالت شريفة مستسلمة :

ـــ كما تشائين ..

وقالت عنايات متعجلة :

ـــ سأتصل بك بعد دقائق ..

وألقت سماعة التليفون ..

وبعد دقائق رن جرس التليفون وسمعت عنايات تصيح بفرحتها :

ـــ الليلة ..

وقالت شريفة وهى مستسلمة بلا فرحة :

ـــ الليلة ..

ولم تقض يومها فى إعداد نفسها للقاء أحمد .. بل ظلت ساهمة تعيش مع خيالها وتتصور الكلمات التى يمكن أن يقولها لها والكلمات التى يمكن أن تقولها له .. وفى المساء أعدت نفسها الإعداد الطبيعى الذى تعودته .. وإن كانت قد اختارت ثوبا يغطى كل صدرها وكل ذراعيها ويتدلى إلى آخر ساقيها ، كأنها تتعمد أن تخفى كل ما فيها من إغراء .. وتعمدت أن تصل متأخرة قليلا كأنها تتعمد أن تتركه وحده حتى يشرب كأسا

أو كأسين قبل أن يلقاها ..

وهو أمامها ويدها فى يده والكأس فى يده الأخرى .. وتركت له يدها .. وعنايات وزوجها مدحت يقولان كلاما كثيرا ثم اختفيا داخل البيت وتركاهما وحيدين ..

وقال أحمد بصوته المنطلق الرقيق .. صوت الكأس :

ـــ لقد عشت كل هذه الأيام والشهور وأنا متأكد أننا سنعود ونلتقى ..

وقالت وهى تخفى عينيها عن عينيه ، وبعد أن أخذت يدها من يده :

ـــ لقد كنت مصممة على ألا نلتقى إلا لقاء صدفة .. ولكنى أعترف بأنى خرجت عما قررته .. ولعلك تعلم أنى أنا التى طلبت من عنايات تحديد هذا اللقاء ..

وقال أحمد وهو يحاول أن يمد يده إلى يدها :

ـــ إنى أعلم أنك صعبة .. مستحيلة .. ولكنى أعلم أيضا أن ما بيننا أقوى من أى صعب وأى مستحيل ..

وقالت وهى ترفع عينيها إليه كأنها تلومه وتبعد يدها عن يده :

ـــ إنى لا أحب أن يقال عنى إنى صعبة أو مستحيلة .. وأفضل أن يقال عنى إنى عاقلة .. والعقل يفرض على ألا أدخل على عمرى لحظات عابرة .. مهما أغرقتنى هذه اللحظات .. فالعمر السعيد هو العمر المستقر .. المستمر .. الراضى عن نفسه ..

ورفع كأسه إلى شفتيه كأنه يستغيث بها ثم قال :

ـــ لهذا اتخذت قرارى كما سبق أن قلت لك ..

وقالت فى لهفة :

— أى قرار ؟

قال وهو يعود يمسك بيدها ويضغط عليها :

— أن نتزوج ..

لم يبد عليها أنها فوجئت .. كأنها هى الأخرى كانت تفكر فى هذا القرار .. وقالت ويدها فى يده :

— ولكنك تعلم أنى متزوجة ..

وقال وهو يضغط أكثر على يدها :

— وأعلم أيضا أنك وحيدة .. وأنا وحيد .. وكل منا يملأ وحدة الآخر ..

وسكتت برهة ساهمة وأصابعها تتلاعب فوق يده التى تمسك بيدها ثم قالت :

— دعنى أفكر ..

قال وهو يقترب بشفتيه فوق وجنتها :

— لنفكر معا ..

وابتعدت برأسها عنه قبل أن تصل شفتاه إلى وجنتها حتى اهتزت الكأس فى يده وسقطت منها قطرات على ثوبها .. وقالت فى رقة كأنها تعتذر عن قبلته :

— ليس قبل أن أنتهى من التفكير ..

وقال وهو يقوم من جانبها ويقترب من « البار » يملأ كأسه .. لعلها الكأس السادسة أو السابعة .. وقال :

— إننا نفكر منذ أن التقينا أول مرة .. ولم نعد فى حاجة إلى التفكير ..

وقالت وقد قامت واقفة كأنها تهم بالانصراف وعيناها مركزتان على

الكأس فى يده :

ــ إنى أنقل حياتى إلى حياة أخرى .. كأنى أولد من جديد .. فدعنى أفكر فى كيف أولد ..

وقال فى رجاء رقيق :

ــ نستعرض معا كل التفاصيل حتى نستقر على كيف نعيش ..

وقالت وهى تبتعد عنه إلى باب الخروج :

ــ إنى وأنا معك لا أستطيع أن أرى كل ما حولى .. فدعنى أفكر وحدى ..

وخطت نحو الباب وهو يلاحقها قائلا :

ــ إلى أين ؟

وقالت مبتسمة :

ــ لقد اتخذت قرارك وأنت تفكر وحدك بعيدا عنى .. فدعنى أنا الأخرى أفكر بعيدا عنك ..

وفتحت الباب وخرجت دون أن تحييه ودون أن تنادى على صديقتها عنايات لتحييها .. وهو يرفع كأسه إلى شفتيه ليقاوم به سخطه ..

* * *

وتاهت مع فكرها .. لا شىء من إحساسها يضغط على هذا الفكر .. لا مركزه العالى .. ولا ثراؤه .. ولا وسامته .. ولا حديثه المنطلق الرقيق .. ولا ضغطة يده على يدها .. ولا أنفاسه الساخنة التى هبت عليها وهو يقترب من وجنتها .. لقد هبت عليها مع هذه الأنفاس رائحة الخمر وتحملتها رغم أنها تقززت منها .. كل فكرها محصور فى سؤال واحد .. هل تتزوجه ؟!.. إن من حقها أن تطلب الطلاق من زوجها .. إن كل

ما بينهما هو استمرار العشرة .. إنها لا تحبه هذا الحب الذى تحلم به .. ولعله هو الآخر لا يحبها أكثر من حب العشرة .. وهى لا تكرهه .. ولم تقم بينهما مشاكل تلومه عليها .. ولكنه لم يعطها أبناء أو بنات يخففن عنها وحدتها معه .. ولو طلقت منه فلن تخلف وراء هذا الطلاق أبناء تتغير أو تتأثر حياتهم به .. إن من حقها قطعا أن تطلب الطلاق .. ولكن من تتزوج ؟!.. لقد تأكدت أن أحمد له شخصيتان .. وليس لها منه إلا شخصية واحدة .. شخصية الرجل الفارغ عن العمل والذى يعيش داخل كأس .. ربما لو تزوجته لعاشت أيضا وحيدة فى انتظار الساعات التى يجمعها به الكأس .. فهو لم يحاول أبدا أن يقدم لها نفسه بلا كأس .. لم يحاول أبدا أن يقدم لها الشخصية الثانية الجادة الجافة .. أى شخصيته وهو يعمل .. ومن يدرى .. ربما مرت ليال يشغله فيها عمله عن كأسه فتقضيها كلها وحيدة .. وهى لا تستطيع أن تعيش معتمدة على الكأس وحدها .. إن ما تثيره الكأس غير موثوق به .. إنه الآن كأس يدعو إلى الزواج .. وقد ينقلب فجأة إلى كأس لا يطيق الزواج .. وهى تعرف امرأة تزوجت رجلا بعد أن ألح عليها طويلا ثم طلقها بعد أسابيع أو أيام .. لقد كان كل ما يريده أن يصل إليها وبعد أن وصل وذاقها شبع منها ولم يعد يطيقها .. وقد لا تكون بالنسبة لأحمد سوى « المزة » أو المذاق الذى يريده كأسه .. ومن يدرى .. ربما شبعت الكأس من هذا المذاق ..

وقامت تخلع ثوبها ورأت عليه قطرات الكأس التى سقطت عليه عندما كان أحمد يحاول تقبيلها .. واجتاحتها نوبة من السخط والتقزز والقرف .. فأمسكت بالثوب وأخذت تمزق فيه حتى جعلت منه عشرات القطع وحملتها وألقت بها فى صفيحة الزبالة وأشعلت فيها النار ..

ومضى الليل وهى لا تنام وأفكارها ترتفع بها إلى السحاب ثم تلقى بها على الأرض ..

وفى صباح اليوم التالى اتصلت بها عنايات وقالت وصوتها متغير رغم أنها تفتعل المرح كأنها تكتم إحساسا بالغيظ :

ـــ الليلة ..

وقالت شريفة بسرعة كأنها تهرب :

ـــ لا .. لا .. لا أستطيع الليلة ..

وقالت عنايات بصوتها الذى ينبض بالغيظ من خلال مرحها المفتعل :

ـــ لا أكتمك أنى وزوجى كنا نسترق السمع إلى كل ما تقولانه أنت وأحمد .. مبروك .. إنك امرأة مستحيلة وقد وصلت إلى المستحيل .. متى سنحتفل بكما ..

وقالت شريفة وقد أحست بغيظ عنايات .. إنها ليست فرحة لهذا الزواج .. إنه زواج سيفقدها احتياج أحمد لها .. وقالت وهى تحاول أن تكون هادئة :

ـــ إنى لم أقرر شيئا بعد ..

وصاحت عنايات كأنها فرحة :

ـــ هل لا تقبلين الزواج ؟

وقالت شريفة وكأنها لا تريد أن تترك الفرحة لعنايات :

ـــ لم أقبله ولم أرفضه بعد ..

وقالت عنايات فى رنة دهشة :

ـــ أنت مجنونة ..

وقالت شريفة كأنها تسخر من نفسها :

ـــ إنى عاقلة إلى حد الجنون ..

وطال الحديث دون أن ينتهى إلى شىء ..

وقضت يومها هائمة مع أفكارها .. إنها لم تتناول إفطارا ولا غداء ولا عشاء .. إنها لم تغير عن جسدها قميص النوم الذى قامت به فى الصباح ..

وفى الليل .. فى الساعة الحادية عشرة مساء .. رفعت سماعة التليفون واتصلت بأحمد .. لا بد أنه الآن فى الكأس الثالثة .. وقالت فى رجاء وفى صوت يتنهد كأنه مبلل بالدموع :

ـــ أرجوك أن تعذرنى وأن تفهمنى .. لقد قررت أن أعود إلى انتظار الصدفة ..

وقال فى دهشة وصوته يعلو كأنه فى ثورة الكأس :

ـــ ماذا تريدين أن تحقق لك الصدفة أكثر من ذلك ..

وقالت من خلال دموعها :

ـــ إنى فى انتظار صدفة لا تتركنى لفكرى .. صدفة أقوى من الحيرة ..

وقال وقد استعاد هدوءه وكأن الكأس قادته إلى الهدوء :

ـــ فهمت .. وسأبقى معك فى انتظار هذه الصدفة .. مع السلامة ..

وألقى سماعة التليفون من يده قبل أن تلقيها من يدها ..

وسقطت على الفراش تبكى وتحس أن دموعها تغسل حيرتها ..

واحد من الرؤساء ..

إنه محمود المرعشلى منذ بدأ وعيه بالحياة وهو مبهور بالرؤساء .. كل أنواع الرؤساء .. وقد بدأ عمره وهو لا يزال فى قريته مبهورا بمأمور المركز .. إنه الرئيس .. وكان وهو صغير يذهب مع أبيه أو أخيه الأكبر لزيارة المأمور فى شأن من الشئون فيجلس أمامه وهو ينظر إليه كأنه ينظر إلى السماء .. وتبرق عيناه وهما مبحلقتان بالنجوم التى تحلى كتفيه فوق بدلته الرسمية .. بدلة رجال البوليس .. ويسمعه وهو يتكلم فيخيل إليه أن صوته ولهجته لا يمكن أن تكونا لرجل عادى .. إنهما صوت ولهجة رئيس .. وهو يقول كلاما لا يمكن أن يقول مثله أبوه أو أخوه .. إنه كلام خاص بالرؤساء .. ويخرج من اللقاء وخياله ينبض بأمنية أن يكون يوما من رجال البوليس .. ويرتدى هذا الزى البوليسي الفخم .. ويعلق على كتفيه النجوم .. ويكون مأمورا على المركز .. أى أن يكون رئيسا ..

وعندما انتقل للإقامة فى مدينة طنطا للالتحاق بالمدرسة الثانوية .. أصبح كل خياله مبهورا بشخصية المحافظ .. إنه رئيس المديرية كلها .. صاحب الأمر والنهى على كل فرد من أفراد شعب المديرية .. إن المحافظ يستطيع أن يصدر أمره لناظر المدرسة ولكل مدرسيه بأن يعفوه من متاعبه فى مذاكرة دروسه وبأن ينجح فى الامتحان حتى لو لم يذاكر .. ولكن كيف يستطيع أن يصعد إلى سماء المحافظ ويلتقى به ويتبارك بمعرفته .. إن ابن المحافظ زميل له فى المدرسة واستطاع أن يتقرب إليه ويبذل كل إمكانياته حتى صادقه إلى أن دعاه ابن المحافظ إلى زيارته فى البيت .. فى

القصر .. والتقى صدفة بالمحافظ نفسه .. ووقف أمامه وهو يرتعش بانبهاره .. إن المحافظ أطول وأعرض من كل الناس .. ووجهه لا شبيه له .. حتى ابنه لا يشبهه .. إن الرؤساء لهم وجوه لا شبيه لها .. وربط كل أيامه بصداقة ابن المحافظ والتردد على القصر ولقاء المحافظ أو مجرد رؤيته من بعيد .. وانبهاره يدفعه إلى الأمل فى أن يكون يوما محافظا .. له كل هذه السلطات .. وكل هؤلاء الموظفين الذين يخضعون لأمره .. ويعيش فى مثل هذا القصر .. وقد عرف أن المحافظ بدأ حياته ضابطا فى الجيش إلى أن وصل إلى رتبة لواء ثم إلى أن وصل ليكون محافظا للمديرية .. وسيبدأ حياته هو الآخر ضابطا فى الجيش .. ليكون محافظا على المديرية ..

وترك المحافظ منصبه فجأة .. وخرج من القصر ومن المديرية كلها .. ولم يهتز محمود .. لا بد أنه نقل إلى رئاسة أخرى .. إن الرئيس يبقى رئيسا طول العمر .. حتى لو مات فربما أصبح رئيسا فى الجنة .. أو رئيسا فى جهنم .. وبدأ يسعى إلى لقاء المحافظ الجديد وهو مبهور به وبنفس قوة انبهاره بالمحافظ القديم .. انبهاره بالرئاسة ..

ولم يكن محمود منبهرا بالرئاسات التى يخضع لها مباشرة فحسب .. بل كان مبهورا بكل الرئاسات التى تظهر فى كل مصر بل وفى كل العالم .. وهو يقلب الصحف والمجلات متتبعا أخبار أصحاب الرئاسات .. ويتطلع إلى الصور التى تنشر لهم بإحساس الخشوع والانبهار كأنه يتطلع إلى صور آلهة .. وكان يحس كأنه يكاد يهم بالسجود على الأرض كلما تطلع إلى صورة جمال عبد الناصر .. إنه الرئيس الأكبر .. وأحس نفس الإحساس كأنه ساجد على الأرض وهو يتطلع إلى صورة أنور السادات .. إنه أيضا الرئيس الأكبر ..

ولم يكن محمود يفرق بين الرؤساء .. أو يكون له رأى خاص فى كل منهم ينتهى بأن يحكم عليه حكما منفصلا .. سواء من ناحية الاتجاه السياسى أو القدرة الإدارية أو الطبيعة الشخصية .. إنه لا يسأل نفسه عن الأيدلوجية السياسية التى يمثلها هذا الرئيس .. هل هو من اليمين أو اليسار .. ولا يحاول أن يحاسب الرئيس على قدرته الإدارية .. وهل هو فالح أم فاشل .. وهل هو يحقق أغراضا شخصية أم يصون الأغراض العامة .. وهل هو نظيف اليد أم ملوث اليد .. كل هذا لا يخطر على باله ولا يشغل به فكره .. يكفى أنهم كلهم رؤساء .. والرئاسة منصب عظيم مهيب مهما اختلفت درجاته .. والمنصب هو الذى يثير فيه كل هذا الانبهار ..

وربما كانت هذه الطبيعة التى يتميز بها محمود .. طبيعة الاستسلام أمام المنصب .. هى التى وفرت له القدرة على التقرب لأى رئيس .. فكل منهم لا يلبث أن يطمئن إليه .. ويثق بأنه لا يمكن أن يكون له رأى يهدده أو يزعجه .. وأنه لا يمكن أن يحاسبه أو يكشفه .. حتى إن كثيرا من الرؤساء كان كل منهم يعتبر محمود كأنه من أبنائه .. ومحمود يطير بالزهو والخيلاء لأنه أصبح وكأنه ابن الرئيس ..

وكان محمود نفسه له مركز اجتماعى محترم ومعروف .. فهو ابن عائلة المرعشلى .. وهى عائلة لها أصول قديمة ولها مكانتها بين العائلات الريفية التى تمثل مديريات القطر المصرى .. ولكنه يعلم أنه لا يمكن أبدا أن يكون رئيسا داخل عائلته .. فبعد وفاة أبيه أصبح أخوه الأكبر هو الرئيس الذى يتحكم فى كل مقدرات العائلة .. وهو ليس إلا فردا من أفراد العائلة يحمل اسمها المعروف ولكن ليس له فيها أى منصب من مناصب الرئاسة ..

ولذلك تمكنت منه أحلامه بأن يصل إلى الرئاسة من خارج العائلة .. ولكن مجرد أنه يحمل اسم العائلة المحترم المعروف كان له مفعول فى تقربه إلى الرؤساء .. فكل رئيس يتباهى بأن يفتح باب بيته وأن يضع فى خدمته ابنا من أبناء عائلة المرعشلى ..

وانتهى محمود من دراسته الثانوية فى طنطا .. ولم يكن تلميذا متفوقا ولكنه كان حريصا على نيل الشهادة ولو فى أدنى مستوياتها فهو يعلم أن الشهادة الدراسية تعتبر عنصرا أساسيا فى الوصول إلى أى رئاسة .. وانتقل بعد الثانوية للإقامة فى القاهرة .. واختار الالتحاق بكلية الحقوق .. جامعة عين شمس .. ربما لأن مجموع الدرجات التى حصل عليها بشهادته الدراسية لا يتيح له أكثر من الالتحاق بكلية الحقوق .. ولكنه سعيد .. رغم أنه لم يكن يخطر على باله دراسة القانون ولم يهتم يوما بأن يعرف ما هو القانون .. وهو سعيد لأن آخر محافظ يتولى رئاسة المديرية .. كان من خريجى كلية الحقوق .. أى أن خريجى الحقوق يمكن أن يكونوا رؤساء ..

ووجد القاهرة مزدحمة بمختلف أنواع الرئاسات .. إنها مقر الرئيس الأكبر .. وكل من يحيط به من أفراد يعتمد عليهم يعتبر رئيسا قائما بذاته .. رئيسا يحتل منصب حق الاتصال بالرئيس الأكبر .. ثم الوزراء .. ثم رؤساء المؤسسات .. ورؤساء التنظيمات .. و .. و .. وهو متفرغ للسعى إلى التقرب من كل هذه الرئاسات .. حتى مجال الفن يقوم على رئاسات .. إنه يعتبر أم كلثوم رئيسة .. وعبد الوهاب رئيسا .. وفاتن حمامة .. وعبد الحليم حافظ .. وعماد حمدى .. ورشدى أباظة .. و .. و .. كلهم رؤساء .. ويجب أن يلتقى بهم

ويعرفوه .. لا لأنه متطرف فى الإعجاب بما يقدمونه للفن .. ولكن لأنه يعتبرهم رؤساء .. إنه لا يهتم بأى فنان ليس رئيسا ..

وهو فى القاهرة متفرغ بكل أيامه وكل عقله وكل إمكانياته إلى السعى وراء الرؤساء .. وقد يستطيع أن يصل إلى الواحد منهم مباشرة .. وقد يصل إلى واحد عن طريق ابنه الطالب معه أو حتى لو كان طالبا فى جامعة أخرى .. وقد علم أن ابن رئيس الوزراء طالب فى كلية الهندسة .. وقد وجد الحجج للتردد على كلية الهندسة حتى تعرف به .. ووطدت صداقته معه حتى دعاه إلى البيت وأصبح رئيس الوزراء نفسه يعرفه ..

وكان يعتمد فى سعيه كما كان دائما على شخصيته المهذبة المطمئنة .. وعلى تجنبه الدخول فى أى نقاش يصل إلى أى خلاف قد يبعده عن أى شخص .. إنها شخصية تؤكد أن ليس له رأى .. وأنه يستسلم لأى رأى .. على أن يكون رأى الرئيس ..

وبجانب هذا فقد بدأ يعتمد على تقديم الهدايا .. فهو يدعى أنه فلاح ويقدم هدايا كأنها من إنتاج الفلاحين .. وأصبح يغالى فى تقديم هدايا من زكائب القمح .. أو أقفاص الفاكهة .. وأقفاص الديوك الرومى .. وصوانى الفطير المشلتت .. والرؤساء يرحبون بهداياه بجانب اعتزازهم وزهوهم باسم عائلته الكبيرة ..

وقد استطاع خلال السنوات التى قضاها طالبا فى الجامعة أن يتعرف إلى كثير من الرؤساء .. ويدخل بيوتهم .. ويرتبط معهم بخيوط الصداقة .. وكانت أقوى هذه الخيوط هى صداقته لزميله فى الكلية أشرف بسيونى ابن السيد عزيز البسيونى رئيس مؤسسة الاقتصاد الوطنى .. لقد ضمته كل العائلة إليها واعتبرته كأنه منها وأخ لأشرف

لا مجرد صديق له ..

وبمجرد أن حصل على الليسانس وتخرج فى كلية الحقوق .. وقبل أن يحدد ماذا يريد وكيف يخطو .. فوجئ بالسيد عزيز البسيونى يعرض عليه أن يعينه سكرتيرا له فى مكتبه بمؤسسة الاقتصاد الوطنى .. إنه يثق فيه ويطمئن إليه .. ربما أكثر من ثقته واطمئنانه إلى ابنه أشرف الذى يزعجه بآرائه المتطرفة وحساباته التى لا تنتهى عن كل تصرفات المؤسسة .. وإن كانت آراء وحسابات يصبها أشرف داخل العائلة .. ولا يذيعها فى الخارج حرصا على سلامة أبيه ..

وفكر محمود سريعا فى هذا العرض .. إنه لا يفهم شيئا فى شئون الاقتصاد التى تتولاها المؤسسة .. حتى علم الاقتصاد الذى تلقاه فى كلية الحقوق لم يكن يهتم باستيعاب فهمه إنما استطاع أن يصم بعض سطور الكتب وسجلها على ورقة الامتحان .. ثم تبخرت من عقله تبخرا كاملا بعد الامتحان .. ولكن العلم ليس شرطا للوصول إلى الرئاسة .. إن كل الرؤساء الذين عرفهم ليسوا من المتخصصين فى العلوم التى تمارسها المراكز التى تولوا رئاستها .. والسيد عزيز البسيونى نفسه ليس من علماء الاقتصاد حتى يتولى رئاسة المؤسسة الاقتصادية الوطنية .. إنه أصلا من ضباط الجيش ولا يزال يعتز بلقب لواء الذى خرج به من الجيش ويتعالى على لقب « السيد » الذى يفرض عليه كرئيس للمؤسسة .. ثم من ناحية أخرى فإن السكرتير هو ممثل الرئيس .. أى أنه سيكون بمثابة رئيس .. وهو الطريق السليم الذى يصل به إلى أن يكون هو نفسه رئيسا ..

وقبل محمود فورا عرض السيد اللواء عزيز البسيونى .. وقرر بينه وبين

نفسه أن يكون سكرتيرا رائعا يذهل بروعته كل الناس ..

من هو السكرتير ؟!

إنه ليس مجرد تشريفاتى يستقبل الزائرين ويحدد المواعيد ويرد على التليفون ويتصرف فى الأوراق .. إن السكرتير الواعى هو الذى يعتبر نفسه كأنه عقل ويد الرئيس .. أى يلغى عقله ويده المرتبطة بذراعه .. ويسلم رأسه للرئيس ليشكل فيها العقل الذى يريده ويسلم له ذراعه ليلصق بها اليد التى يرتاح لها .. إن يده ليست أكثر من قلم أبنوس فى يد الرئيس يسجل به ما يشاء ..

وفى شهور قليلة أصبح كأنه ظل الرئيس .. بل يحرص على أن يكون صورة من مظاهره .. فالرئيس يضع على مكتبه دائما كتابين أو ثلاثة من كتب إنجليزية .. ويتعمد أن يدخل عليه زائره وهو يتصفح أحد هذه الكتب كأنه منهمك فى دراسة هامة .. ولم يكن محمود يدرى مضمون هذه الكتب ولكنه أسرع واشترى بضعة كتب إنجليزية وضعها هو الآخر على مكتبه .. والرئيس يركب سيارة المؤسسة وطوال الطريق يفتح جريدة يتصفحها .. كأنه لا يجد وقتا لقراءتها إلا خلال انتقاله من مكان إلى مكان .. وأصبح محمود أيضا يركب سيارة المؤسسة وهو يتصفح الجرائد .. والرئيس يدمن شرب القهوة .. فنجان وراء فنجان .. ويدخن سجائر مالبورو .. ولم يكن محمود من مدمنى القهوة وكان يفضل سجائر كليوبترا .. ولكنه أدمن القهوة هو الآخر وأصبح يدخن المالبورو .. بل إنه عرف لمن يبتسم الرئيس .. ولمن يمط شفتيه فى قرف وتعال .. ومع من يكون رقيقا ومع من يكون رذيلا .. وأصبح محمود لا يبتسم إلا مع ابتسامة الرئيس ولا يرق إلا مع رقة الرئيس ..

وقد استطاع بسرعة أن يكون عقله من عقل الرئيس .. ويده فى ذراع الرئيس .. وأن ينفذ مطالبه ويحقق أوامره دون أن يسأله عما وراءها من تفاصيل .. وكان أحيانا يفاجأ ويدهش من بعض المطالب .. بل كان أحيانا كأن ضميره يؤنبه على أن يكون جادا فى تحقيق مطلب من مطالب .. ولكن كيف يفاجأ بنفسه ويدهش من نفسه .. إنه ظل الرئيس .. أى أنه هو .. ويكفى أن يكون المطلب هو مطلب الرئيس .. فيكون مطلبه ..

وثقة الرئيس به تزداد .. واعتماده عليه يتسع .. حتى رفعه فى عام واحد إلى منصب مدير مكتبه .. وباقى أفراد السكرتارية يتبعونه .. وثقة الرئيس به وصلت إلى حد أنه كان يكلفه بالاتصال بالرؤساء الآخرين .. وبالوزراء .. وبأفراد مكتب الرئيس الآخر .. لقد أصبح معروفا فى مجالات العمل كأنه هو نفسه الرئيس .. وجميع العاملين بالمؤسسة والمتعاملين معها يعاملونه كأنه الرئيس ..

وكان أهم ما يحرص عليه محمود هو ألا يخفى عن رئيسه شيئا مهما قلت أهميته .. إنه ينقل إليه كل ما يسمعه أو يكتشفه داخل المؤسسة أو خارجها .. إن عقله لا يطيع أن يحمل شيئا لا يحمله عقل الرئيس .. وقد حدث أن مر به حادث لأول مرة .. إنهم يعرضون عليه رشوة .. فدخل إلى الرئيس فورا ووقف أمامه وقال فى بساطة :

ــ إن عبد اللطيف الجنزورى صاحب شركة « ب . م . و . » يعرض على عشرة آلاف جنيه ..

وقال الرئيس فى هدوء هامسا :

ــ لماذا ..؟ ماذا يريد منك ؟

وقال محمود وهو يهمس هو الآخر :

ـــ إنه يقول إنه مبلغ أتعابى على المجهود الذى قمت به لتحقيق العملية الأخيرة ..

واعتدل الرئيس فى جلسته وقال وقد ارتفع صوته :

ـــ هذا من صميم شئونك الخاصة .. ويجب أن تعلم أننا رغم أننا نعمل فى مكتب واحد إلا أن لكل منا أسراره التى لا تهم الآخر ..

واستنتج محمود أن الرئيس لا يعارضه فى أن يأخذ قيمة أتعابه التى تعرضها عليه شركة « ب . م . و .. » وهو لم يطلب أبدا أتعابا عن أى عملية تقوم بها المؤسسة وتمر أوراقها على مكتبه .. ربما كان لا يزال فى وهم اعتبار مثل هذه الأتعاب كأنها رشاوى .. لا .. إنها ليست رشاوى .. إنها أتعاب .. أو عمولة تعتبر حقا فى كل العمليات يعترف به العالم كله .. حق للرئيس .. وهو لا يعتبر أن بينه وبين الرئيس أسرارا .. إنه يعلم أن الرئيس يتقاضى دائما مثل هذه الأتعاب عن كل العمليات وإن كان لا يصارحه بها أو يحادثه بشأنها .. لأنه لا يحتاج إليه فى تحقيقها .. ولا لأن بينهما أسرارا ..

وقد استطاع أن يرفع قيمة الأتعاب التى حصل عليها إلى خمسة عشر ألفا بعد أن حادث صاحب الشركة بصراحة واستعرض معه ما حققته شركته من أرباح .. وفوجئ بعد أن قبض المبلغ بأن الرئيس يرفعه إلى منصب نائب مدير قسم الاستيراد مع احتفاظه بمنصبه كمدير لمكتب الرئيس .. وقد توالت ترقياته إلى المناصب الأعلى .. مدير قسم .. مدير عام .. مع توالى حصوله على الأتعاب .. ولكن منصبه فى الشركة الذى يهبه كل هذه القوة ظل دائما منصب سُكرتير الرئيس .. وقد ظل دائما

مصمما على الاحتفاظ بحق الاتصال المباشر بالرئيس .. حتى إنه كان عندما ينال منصبا أكبر يظل مصرا على أن تستمر إقامته فى مكتبه الأساسى الذى يفتح بابه على مكتب الرئيس ..

وقد اتسع اعتماد الرئيس عليه حتى أصبح يعتمد عليه فى شئون حياته الخاصة .. كان يكلفه بشئون كثيرة من شئون عائلته .. هو الذى اشترى السيارة الفيات التى يركبها ابنه .. ثم أصبح يكلفه بالاتصال بفريدة هانم للقيام ببعض شئونها .. وكان يكلفه أحيانا بالذهاب إليها فى مصر الجديدة وحملها معه فى سيارته إلى عمارة فى الزمالك ويقول له إنها فى زيارة لأقاربها .. ويبتسم محمود كأنه من الذكاء بحيث يستطيع أن يعرف كل شىء .. ليس هناك سر يمكن أن يخفى عليه .. لا شك أن فريدة هانم هى عشيقة الرئيس .. وقد وصل الرئيس إلى أن طلب منه أن يستأجر شقة فى مصر الجديدة .. وأن يعطيه مفتاحا لها ويحتفظ هو بالمفتاح الآخر .. ليكون فى خدمة الشقة .. وقال الرئيس ضاحكا :

ـــ إنى لا أستطيع أن أجد ساعة راحة إلا إذا اختفيت فى آخر الدنيا ..

فعلا .. إن من حق الرئيس أن يحظى بساعة راحة .. واستأجر محمود الشقة فى مصر الجديدة وأعطى المفتاح للرئيس وهو مرتاح إلى أنه أعفى من مهمة توصيل فريدة هانم من مصر الجديدة إلى الزمالك .. أصبح فى إمكان الرئيس أن يذهب بنفسه إلى مصر الجديدة ..

وبدأ محمود يحس بنقص فى حياته .. يجب أن يكون له هو الآخر عشيقة .. وقد قضى عمره حتى اليوم وهو بعيد عن أن تكون له امرأة .. لا خوفا من الله ولا ترفعا عن الزنا .. ولكن لمجرد أنه كان متفرغا للحياة فى مجتمع الرؤساء .. ولم يخطر على باله أن الرئيس يمكن أن تكون له

عشيقة .. وإذا سمع عن قصة علاقة بين رئيس وامرأة .. قصة عشق .. اعتبر أن هذا الرئيس يعتبر شاذا بين الرؤساء .. ولكن رئيسه ليس شاذا .. إنه مجرد رئيس واقعى يعيش ما تحققه الرئاسة من متع .. ومن حق الرئيس أن تكون له متع تخفف عنه ثقل مسئولياته .. وهو ثقل لا يعانيه المرءوس .. وهو بعد أن ارتقى كل هذه الدرجات فى سلم الوصول إلى الرئاسة أصبح من حقه هو الآخر أن يعيش متعة العشق .. بل أن يستطيع أن يعيش العشق فى نفس الشقة التى استأجرها للرئيس فى مصر الجديدة فهو يحمل مفتاحها .. على الأقل حتى يستكمل طبيعة الشخصية الرئاسية .. ولكن .. لا .. إن كل الرؤساء الذين يعرفهم بدءوا الحياة بالزواج .. الزواج الشرعى الحلال .. ويجب أن يتزوج .. حتى يستكمل المظهر الاجتماعى الذى يحتاج إليه الرؤساء .. ويكون له بيت عائلى محترم مهاب يستقبل فيه المتعاملين مع الرؤساء ..

وقرر أن يتزوج ..

وطبعا لا يمكن أن يناسب إلا الرئاسات .. ولا يتزوج إلا منهم ..

والوزير له ابنة معروضة للزواج .. وهى جميلة مهذبة مثقفة تحمل الشهادة الجامعية .. ولكن كل هذا لا يهم .. كل ما يهم أنها ابنة الوزير .. وتمت كل الإجراءات بسرعة .. فهو أيضا يعتبر شابا وسيما .. وهو شخصية هامة فى مؤسسة الاقتصاد الوطنى .. يحمل اسم عائلة عريقة مشرفة .. ثم إن رئيسه السيد اللواء عزيز بسيونى هو الذى تقدم به لطلب يد العروس .. وهو رئيس محترم على صلة مباشرة بالرئيس الأكبر .. وأعلنت الخطوبة وتحدد موعد كتب الكتاب .. ومحمود يرى عروسه فرحة .. ولكنه حائر .. هل هى فرحة به أم فرحانة بمجرد الزواج .. أى

أنها لو كانت تتزوج أى رجل آخر لما اختلفت فرحتها .. وهو يلاحظ أنها تنظر إليه طويلا كأنها تبحث فيه عن شيء .. أو تنتظر منه شيئا .. وهو لا يدرى عما تبحث وماذا تنتظر .. ويحس دائما كأنه لم يصل إليها .. إلى أن أقيم فرح ليلة الزفاف .. فرح جمع كل الرؤساء وأحيته أم كلثوم رئيسة الفن .. ولكن حتى بعد أن تم الزفاف وأصبح لهما بيت واحد وفراش واحد ظل يحس أنها بعيدة عنه وظل يحس بنظرتها كأنها تبحث فيه عن شيء أو تنتظر منه شيئا ..

ولم يكن قد مر أكثر من عام وبضعة شهور عندما فوجئ بزوجته منى تبتعد عنه وتهجر البيت .. وتطلب الطلاق .. لماذا ؟

إنها تقول إنه بلا شخصية .. إنه أشبه بزهرة مقطوعة ليس لها غصن وتعوم فوق سطح مياه الترعة .. زهرة لها لون براق ولكن ليس لها رائحة .. لا رائحة زكية ولا حتى رائحة منفرة .. إنه صورة بلا شخصية .. وهى لا تستطيع أن تقضى حياتها مع صورة ..

وكان يسمع ما تقوله .. ويثور .. ماذا تريد أكثر من شخصية المنصب الذى وصل إليه .. وأكثر من أن يعيش مقربا فى مجتمع الرؤساء .. ولكنها مصممة على أن يطلقها .. وقد أصبح الرؤساء يؤيدونها فى تصميمها ربما حرصا على سعادتها .. واضطر أن يستجيب لأوامر الرؤساء .. ووقع ورقة الطلاق وهو يعانى منتهى العذاب النفسى .. إنه أول فشل يصدم به فى حياته .. بل إنها حرمته حتى من استمرار الانتساب إليها وإلى أبيها الوزير .. فهى لم تنجب منه لا ابنا ولا ابنة .. ربما كانت تتعمد عدم الإنجاب منه إلى أن تصل إلى اكتشاف هذا الذى كانت تبحث عنه فيه وتنتظره منه ..

وقد وصل به عذابه من صدمته بأن أصبح كأنه يتحداها .. سيثبت لها أنه شخصية تتمناها كل بنات الرؤساء .. بل سيرتقى إلى أعلى حتى يصبح هو نفسه رئيسا كاملا .. وقد أحس بالراحة عندما عزل والدها من الوزارة .. إنها لم تعد سوى ابنة رئيس سابق .. والسابقون لا يساوون شيئا إلا حق الطواف بالمجتمعات والمقاهى حاملين لقب يتباهون به .. وهو لقب « سابق » .. وقد حل محل أبيها كوزير الدكتور معتصم حماد .. إنه والد صديقه العزيز منذ أيام الدراسة أشرف حماد .. وهو يستطيع أن يعتبر نفسه منذ اليوم فردا من أفراد عائلة الوزير الجديد ..

وقد كان الوزير يناقشه طويلا فى استطلاع شئون مؤسسة الاقتصاد الوطنى .. ويحرضه على أن يكشف له أسرارا تعتبر من أدق ما يحرص على كتمانه رئيسه السيد اللواء عزيز البسيونى .. ويضطر محمود أن يجيب على كل سؤال ويكشف عن كثير من الأسرار .. إن الوزير رئيس الرئيس .. وهو لم يتعود أن يخفى شيئا عن الرؤساء .. وإن كان قد أصبح يخفى عن رئيسه ما يدور بينه وبين رئيس الرئيس .. أى أن يخفى عن رئيس المؤسسة ما يدور بينه وبين الوزير .. إلى أن قال له الوزير يوما :

ــ الواقع أنك أصلح من يستطيع أن يتولى رئاسة هذه المؤسسة .. ولكن كيف نستطيع أن نتخلص من رئاسة اللواء عزيز البسيونى ..

وصاح محمود منبهرا بمجرد ترشيحه للرئاسة ولو بكلمة :

ــ كيف ؟

وقال الوزير كأنه يعقد معه اتفاقا سريا :

ــ إن كل المسئولين فى الدولة مقتنعون بضرورة التخلص من اللواء عزيز .. ولكننا لا نزال فى حاجة إلى مزيد من المستندات التى تؤيد هذا

الاقتناع وتفرض عزله ..

وتحت يد محمود كثير من المستندات التى تدين رئيسه وتفرض عزله بل ومحاكمته .. ولكن كيف يخون الرئيس الذى كان صاحب الفضل عليه منذ البداية وهو الذى وضعه على أول درجة من درجات سلم الرئاسة .. ولكنه لا يتخلى عن رئيسه اللواء عزيز ولا يخونه بله أن يقوم بعمله .. والتفانى فى العمل يجب أن يكون أقوى من التفانى فى العواطف الشخصية .. ثم إنه يلبى مطالب الرؤساء الأكبر .. وطاعة الرؤساء هى واجب مفروض على العامل الأمين .. النزيه .. الشريف ..

وقدم محمود كثيرا من المستندات التى تؤكد ضرورة رفت رئيس مؤسسة الاقتصاد الوطنى ..

ولكن الوزير لم يحاول أن يعلن اتهام اللواء عزيز أو أن يقدمه إلى المحاكمة .. بل استدعاه إلى مكتبه وقدم له فنجان القهوة وأطلعه وهو يبتسم فى هدوء على المستندات التى وصلته .. واضطر اللواء عزيز أن يقدم استقالته دون أن يحاول إنكار هذه المستندات أو الدفاع عن نفسه .. لا شىء يعكر الهدوء الصافى الذى يحيط بالحكم .. وقد قبلت الدولة استقالة اللواء عزيز مع تسجيل كلمات محترمة تشيد بتاريخ ما قدمه للبلد من خبرات وما حققه من نهضة اقتصادية ..

وعين محمود المرعشلى بعده وفورا رئيسا لمؤسسة الاقتصاد الوطنى .. وبررت الدولة تعيينه بأنها قررت الاتجاه إلى الاستعانة بالخبراء المدنيين وعدم الاقتصار على الاستعانة بضباط الجيش حتى لو كانوا من أفراد تنظيم الضباط الأحرار .. ومحمود المرعشلى خبير قضى عمره يعمل فى مؤسسة الاقتصاد الوطنى .. ثم إنه من الجيل الجديد الذى يجب أن يبدأ فى شغل

الرئاسات وتحمل المسئولية .. وأقنع هذا التبرير الرأى العام كله وكأن الشعب هو الذى كان يطالب بتعيين محمود المرعشلى رئيسا ..

ومحمود انتفخ بالرئاسة .. وانتقل إلى المكتب الواسع الفخم .. مكتب الرئيس .. ووضع فوقه مزيدا من الكتب الإنجليزية .. وازداد حرصا على التظاهر بقراءة الصحف وهو يستقل سيارة المؤسسة المخصصة له .. بل إنه بدأ يتعمد التردد على شقة مصر الجديدة بعد أن انقطع الرئيس السابق عن التردد عليها .. ربما لأن حق العشق مخصص للرؤساء وهو لم يعد رئيسا .. أو ربما لأنه قاطع محمود وابتعد عن كل ما يربطه به .. ربما كان على علم بأنه هو الذى قدم المستندات التى تدينه .. ولكنه اكتفى بالابتعاد عنه ..

ولكن محمود يضيق بالتردد على شقة مصر الجديدة .. ويعانى الافتعال وهو يصحب امرأة إليها .. إن شخصيته لا تطيق الحرام ولا تستقر إلا مع الحلال .. إن الحرام يحتاج إلى مجهود أكبر وتحيطه التزامات أصعب مما يحتاج إليه الحلال .. ومن الأفضل أن يتزوج .. ثم إن طلاقه من زوجته الأولى لا يزال يثير فيه الإحساس بالمرارة .. ويجب أن يتزوج مرة ثانية حتى يتخلص من هذه المرارة ويثبت أنه شخصية رائعة تتهافت عليها كل البنات ..

إنه طبعا لن يتزوج إلا من مجتمع الرؤساء .. فهو نفسه رئيس ..

النهاية